رواية

ماري شيلي

ترجمة: عبدالعزيز عود العنزي





مكتبة 1655



الإنسان الأخير (فيرني)

ماري شيلي

Author: Mary Shelley

The Last Man (Verney)

Translated from English by:
Abdulaziz Awad Al-Anzi

Designed by:
Sarwar Murad

ترجمها من الإنكليزية:
عبدالعزيز عواد العنزي

تصميم الغلاف والإخراج الفني:
سرور مراد





+965 99462291 / +965 51088000


@DarAlkhan_kw

info@daralkhan.com



رواية

الإنسان الأخير

(فيرني)

ماري شيلي

ترجمة

عبدالعزيز عواد العنزي



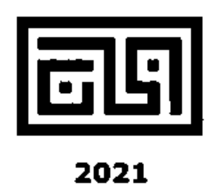
2021


MOHAMED KHATAB



Author: Mary Shelley

The Last Man (Verney)



2021



المجلد الثالث


MOHAMED KHATAB

الفصل الأول

ألا تسمعون صوت العاصفة القادمة؟ ألا تبصرون انفطار الغيوم، وانصباب الدمار الصارخ المريع على الأرض الخربة؟ ألا ترون قصف الصواعق؟ هل أصمكم صريخ السماء التابع للبرق؟ ألا تحسون الأرض وهي تميد وتنشق عن أنين فاجع، بينما يمتلئ الهواء بأصوات الصراخ والنواح، معلنة جميعا بأنها آخر أيام البشر؟ لا! لم يصحب هلاكنا أيا من تلك الأشياء! تنفست الطبيعة من مبسمها الذكي، فعم هواء الربيع الندي الأرض البهية، التي قامت كأم شابة تقود أبناءها بزهو للقاء أبيهم الذي طال غيابه. زينت البراعم الأشجار، ورصعت الأزهار الأرض. انتفخت الأغصان الذابلة مادة أوراقها بعصارة موسمية، وانثنت نباتات الربيع المختلفة مغنِّية مع النسيم، طربا بدفء السماء الصافية. تدفقت الجداول ثرثارة، وسكن وجه البحر فانعكست نتوء الصخور الشاخصة فوقه عليّه. استيقظت الطيور في الغابات، بينما انبثق الغذاء الوفير للإنسان والحيوان من الأرض الداكنة. فأين الشر والألم؟ لم يكن في الهواء أو في المحيط القائظ. لم يكن في الغابات أو الحقول الخصبة، لا بين الطيور التي أضجت الغابات بالغناء، ولا بين الحيوانات الناعمة بالوفرة والشمس. كان عدونا، كفاجعة هوميروس، يطأ قلوبنا، ولم يكن لخطواته أي صوت.

الأرض تزخر بالشرور، وكذلك البحر

والأوبئة تتخطف بشريتنا الواهية

في رابعة النهار والليل تطوف محلقة بصمت

لتخرس أرواحنا أبدا

كان الإنسان الكائن المفضل للخالق، كما أنشد المزمور بأن الرب أنقصه قليلا عن الملائكة، وبمجد وبهاء كلله. سلّطه على أعمال يديه، وجعل كل شيء تحت قدميه. كان ذلك من قبل. أما زال الإنسان سيد الخليقة؟ أنظروا إليه! أرى طاعونا كسى جسده وتجسد في لحمه. امتزج بشخصه وأعمى عينيه الرانيتين إلى السماء. اضطجع أيها الإنسان على الأرض المبثوثة بالأزهار. تنازلْ عن أيّ حقّ لك بالإرث، فما لك من الدنيا إلا الحفرة التي يحتاجها الموتى. الطاعون رفيق للربيع والشمس والوفرة. لم نعد نشقى به. نسينا ما كنا عليه قبل أن يكون. نسينا الأفلاك التي كانت تمخر عباب المحيطات العظام، ما بين نهر السند والقطب، في رحلات للترويح الفارِه. نسينا رحلات الرجال الذين تسنّموا المخاطر لينالوا كنوز الأرض من أحجار كريمة وذهب. ضاعت إنجازات البشر، وصارت حياة الإنسان صفرا. باتت الحياة جُلّ ما نشتهي. أن يقوم جسد اللحم هذا بوظائفه، وأن يقوى مسكن الروح على احتوائها. أمّا أذهاننا التي كانت مشغولة بعوالمَ لا حصر لها وأفكار لا حدّ لها، فقد تخندقت خلف جدران الجسد مشغولة

بحفظ نفسها فقط. كنّا في انحطاط بلا شكّ.

في بادئ الأمر جلب تعاظم الطاعون في الربيع زيادةً في المشقة علينا، نحن الذين بقينا على قيد الحياة، فقد انصرفنا بكامل فكرنا وجهدنا لإغاثة بني جنسنا. تذامرنا لإتمام المهام. فقمنا مقام الأمل في بحر اليأس. خرجنا عازمين على صرع غريمنا. طبَّبنا المريض وسلَّينا المفجوع، وقفلنا من جموع الهالكين إلى القلة من الناجين لنرجوهم بحرارة أن يبقوا على قيد الحياة. بيد أن اليد الطولى كانت للطاعون، ليضحك مستهزئا بنا.

أرأى أحدٌ منكم يا قرّائي الأعزاءَ، حطامَ بيت نمل مباشرة بعد خرابه؟ يبدو مهجورا ممّن سكنوا فيه أول وهلة؛ ثم ما تلبث أن ترى نملة تصارع للخروج من وسط الخراب، ثم يخرجون مثنى وثُلاث؛ جريًا هنا وهناك، في بحث عن أصحابهم. كذا كان حالنا على الأرض، نقلّب أبصارنا بذعر في أثر الطاعون. ظلّت مساكننا الخاوية قائمة، إلا أنّ ساكنيها احتشدوا في غيابات القبور.

مع ضياع الأعراف وأحكام القانون، بدأ بعضهم على استحياء بتجاوز المُتعارف عليه. هُجرت القصور، فجسر الفقراء أخيرا غيرَ مردوعين على دخول الغرف البهيّة، بعدما كانت زينتُها وأثاثها عالَما لا عهد لهم به. ولمّا انقطعت حركة شراء السلع، انحدر بائعوها الذين اغتنوا من حاجات الناس

الواهمة إلى فقر مريع. إلا أنه ظهر لنا أنّ زوال حدود الملكيات الخاصة أنتج وفرة تزيد عن الحاجة في شتّى السلع التي هي من صنع الإنسان. كان ذلك مدعاة للسرور عند بعض الفقراء. فقد بتنا الآن سواء، يسكن جميعنا في بيوت فارهة مفروشة بسجّاد فاخر وسُرُرٍ فخمة. وكان من وفرة العربات والخيول، والصور والتماثيل، والمكتبات الفخمة، أن بلغت بهمْ إلى حدّ الإسراف. ولم يكن من رادع يمنع أحدا من وضع يده على ما يشاء. صرنا سواسية، ولكنّ الأمر لم يقف عند ذلك الحد. فقد أوشكت سواسيةٌ أشملَ، يستوي فيها الجمال والبأس والحكمة، كما استوت الثروة والأنساب. فَغَر القبر فاه أسفل منا، فألهانا منظره عن التمتع برغد العيش الذي قدم إلينا على صحن من خوف.

لم تذوِ الزهور في وَجَنات أطفالي بعدُ، وشبّت كلارا في شباب لم يشُبْهُ المرض. لم يكن من سبب يجعلنا نظنّ بأنّ قلعة وينزر كانت مرتعًا للعافية، فقد هلكت عوائل عديدة تحت سقفها. هكذا عشنا دون أيّ احترازات، فعشنا سالمين، كما بدا لنا. وإن كان جسد آيدرس قد انبرى وشحب لونها، فما ذلك إلا من فعل القلق المرافق لتقلّب الحال. ذلك القلق الذي لم أستطع له دفعا. لم تشك قطّ، إلا أنّ النوم والشهية فارقاها، ونهشت حمى بطيئة جسدها فتلوّن وجهها بحمرتها، وكانت كثيرة البكاء في السرّ. تظافرت عليها نذر الهلاك والخوف المجزع، فنزعت منها الروح. لم يغب تغيّر حالها عنّي. كثيرا ما

كنت أتمنّى لو أنني أذنت لها بأن تقوم بما أرادت، وأن تنشغل بمساعدة الآخرين، علّ ذلك يلهيها عن تلك الأفكار. إلا أنّ الأوان قد فات الآن. فبالإضافة إلى قُرب انقراض جنس البشر؛ ممّا يجعل أيّ عمل محض هباءً، كانت قوتها بالغة الضعف. استهلكها فرط التفكير، وأنهك قوة أطرافها. كانت تقضي الليل حين يتسنّى لها الغياب عن طرفي، إمّا هائمة في أرجاء المنزل أو مجانبة لأسرة أطفالها. وفي النهار كانت تغطّ في نوم مضطرب، بينما تشي دمدماتها وارتعاشاتها بالأحلام المكدرة لنومها. مع استحكام حالة البؤس تلك، وعلى محاولاتها التستر على حالها الواضح، حاولتُ جاهدا أن أوقظ فيها الأمل والشجاعة، لكن بلا جدوى. لم أعجب لحرصها الشديد على رعايتنا، فقد كان الحنان جوهر روحها؛ وقد وقر في صدرها يقينٌ بأنها لن تعيش بعدي إن وقعتُ فريسة للكارثة التي غشتنا، وكان في ذلك اليقين عزاء لها. قطعنا درب الحياة معًا سنين عديدة، يدا بيد، وهكذا نرجو أن نلج ظلال الموت. لكن ماذا عن أطفالها، المفعمين بالحياة والمرح، الذين انبثقوا من جنبها، قِطَعٌ من وجودها ومستودع حبنا؛ سيكون عزاؤنا وإن متنا أنهم سلكوا درب حياة البشر المعتادة. لكن الأمر لن يكون كذلك. فعلى صباهم وتفتحهم سيموتون، وينزعون من آمال النضوج وبلوغ الحلم إلى الأبد. لطالما رأتهم بعين عاطفة الأمومة لترى فيهم شمائل وفضائل أكبر من الحياة بأسرِها. واحسرتاه على آخر أيامنا! شاب العالم، وتقاسم الهرمَ كلّ من فيه. ما حديثنا عن الطفولة والشباب والمشيب وقد شربنا قدرا واحدا من

سكرات نهاية العالم. أتينا إلى الوجود في هذا الوقت من عمر العالم، حيث زال الفرق بين معنى الأب والابن، وتساوت حياة الراشدين بالصغار من الفتيان والفتيات. كان كلّ ذلك حقًّا جليًّا، وزاد الحقيقة إيلاما أنها لم تفارقنا قطّ.

أي ناحية أمككنا الالتفات إليها لنرى شيئا غير الدمار الشنيع؟ تُركت الحقول غير محصودة، ونبتت فيها الأعشاب والأزهار بغير ترتيب. أمّا الحقول التي أبدت علامات تحيي الأمل بهمم الرجال، فقد تركت نصف محصودة، حيث مات الفلاح بجانب المحراث. هجرت الخيول الحقول، وتجنّب بائعو البذور أماكن الموتى. هامت الماشية المهملة في الحقول والطرقات، وتوحّشت الدواجن الأليفة بعدها انقطع عنها الطعام. رتعت الحملان في حدائق الزهور، واستوطنت الأبقار قصور الأغنياء. لم يزرع القلّة المنهكون الباقون من أهل الريف ولم يحصدوا، إنما ساحوا في المروج واستلقوا تحت الأشجار كلما سنحت لهم الفرصة. اختار آخرون العزلة عن الناس، فكدّس بعضهم المؤونة حتى لا يضطرّوا إلى مغادرة منازلهم؛ وهجر بعضهم زوجته وأبناءه، ظنًّا منه أن النجاة في العزلة. كذلك كانت خطة رايلاند الذي وُجد ميتا وقد أكلت الحشرات نصف جثّته، في منزل يبعد أميالا عديدة عن أقرب ساكن، وقد كدّس أكواما من الطعام الذي لم يغنه شيئا. قطع آخرون رحلات طويلة قاصدين رؤية أحبّتهم، ليجدوهم هلكى عند وصولهم.

لم يبق في لندن أكثر من ألف من السكّان، وكان ذلك الرقم في تناقصٍ مستمر. كان أغلبهم من سكّان الأرياف الذين طلبوا النجاة. بينما طلب أهل لندن النجاة في الأرياف. خيّم الصمت على الجزء الشرقي الحافل من المدينة، فلم تكن تر فيه إلا من غلبه الفضول أو الطمع. خُرِّبت المخازن عبثا لا نهبًا، ونثرت على الأرض رزمٌ من البضائع الهندية الفاخرة من خمر ومجوهرات وبهارات. وقام أهل بعض المخازن على حراستها حتّى آخر لحظة، وماتوا دون أبوابها المقفلة. تأرجحت أبواب الكنائس الضخمة لتئنّ مفاصلها، بينما استلقى الموتى على بلاطها. جالت الأنثى البائسة ضحية الفقر الموحش في القصور، وشخصت أمام مرآة زينة النبيلات، مزينة نفسَها بلباس البهاء، لتموت أمام المرآة التي أجلت لها تبدّل حالها. وفرّت ذوات النسب اللاتي لم تطأ أقدامهن الأرض من رغد العيش في رعب من منازلهن، حتى تهن في شوارع المدينة القذرة، ومتن على أعتاب القفر. اشمأز القلب من تعدّد الرزايا أمامه. وكلما برز لي شخص من أولئك المصابين، انقبضت روحي هلعًا ممّا قد يحلّ بأحبّتي، آيدرس والصغار. أسيعيشون بعد موتي وأدريان، ليجدوا أنفسهم بلا حام؟ لم يطلني من عذاب فقدهم إلا تخيّلُ الأمر. لكن هل سأستطيع تأخير ساعة انقضاض الجوع والشقاء والمرض على أجساد أطفالي الرقيقة، وانتهابهم لصاحبتي، ربيبة النبل والرغد؟ الموت أهون! أن أغرس خنجرا في صدرها قبل أن يمسّها السوء، ثم أغمده في صدري! لكن لا، الواجب علينا في أوقات

الشدة أن نجابه مصائرنا، وأن نكافح للتغلّب عليها. لن استسلم إلا مع آخر زفرة من روحي، وإن هزمت فلن أهزم إلا مكلّلا بالمجد. قمت على الثغر مقاتلا عدوَّنا الخفيَّ غيرَ المحسوس، المحاصر لنا منذ وقت طويل. لا بدَّ وأن حرصي ما منعه من اختراقنا. هل زاد جوع الموت مع تناقص فرائسه، أم أن كثرة الناجين من قبل جعلت الموتى أقلّ عددًا في نظرنا؟ صارت كلّ روح كنزا الآن، وكل نفس بشري وإن كان بعيدًا أغلى من أعظم الصروح بناء. وأمرض قلوبنا بيأس شديد ما كنا نرى من تناقص أعدادنا كلّ يوم، بل كلّ ساعة. قضى هذا الصيف على آمالنا. تحطّمت سفينة قومنا، وانقادت ألواح الناجين إلى قلب العاصفة لتلعب بها وتهشّمها. اقتصرت البشرية على الوجود في الثنائيات والثلاثيات: الإنسان، والفرد الذي ينام ويستيقظ، والمنشغل بوظائفه الحيوانية. أمّا الإنسان الضعيف بفردانيته، والمتفوّق بجماعته على الرياح والمحيطات مطوّع الطبيعة، سيّد المخلوقات، ونظير أنصاف الآلهة، فلم يبقَ منه أثر.

وداعا للمشاهد الوطنية، وللطموحات النبيلة المحبّة للحرية. وداعا لجمع الشيوخ في البرلمان وأقران الحكمة، من كانت تشريعاتهم أشطر من نصل سيف سقي في دمشق. وداعا للأبّهة الملكية، ولمواكب الحرب، فقد مُرّغت التيجان بالتراب، ووري لابسوها التراب. وداعا لإرادة القانون والأمل بالنصر، لعزائم بلغت السماء، ولنفوس تتوقَ إلى المجد وإلى خير بني جلدتهم. لم يبق للشعوب أثر، فلا برلمان للموتى،

ولا سليل ملك يحاول لاهثا أن يحكم أكداس الجثث. ويد الجنرال باردة، بينما يحفر جنوده قبره؛ ليدفن غير مكرم في شبابه. ساحات السوق خالية، ولا يجد ممثل الشعب أحدا ليمثّله. وداعا للغرف البهية. وداعا لعربدة الليل، ولهاث النشوة الجميل، للفساتين الباهظة ولحفلات أعياد الميلاد، للألقاب وللتيجان المذهّبة.

وداعا لبأس الإنسان الشديد، وللمعرفة المرشدة للقارب في خضمّ المحيط اللا محدود. وداعا للعلم الموجّه للمنطاد الحريري في الجوّ الذي لا طريق له. وداعا للقوة القادرة على كبح الأمواج العتية، والمحركة للعجلات والأطواد والآلات العظيمة؛ القادرة على شطر الصوان أو الرخام، وتسوية الجبال بالأرض.

وداعا للفنون والفصاحة المحرّكة لعقل الإنسان كما تحرّك الرياح أمواج البحر. وداعا للشعر والفلسفة، فقد تجمّد ذهن الإنسان ولم يعد عقله المتسائل يقوى على التأمّل في عجائب الحياة، فلا عمل ولا آلات، ولا معرفة ولا حكمة في القبور التي سيصيرون إليها. وداعا للأبنية الساحرة التي أُحسن تقديرها لتسموَ بأشكال الطبيعة الفظّة، للزينة القوطية وللأبنية العربية الهائلة، للقنطرة المذهلة والقبّة المبهرة، للأعمدة المنقوشة في مدنها، كورنث، أيونيا أو دوريا، للأروقة المعمدة المطربة للعين كما تطرب الأوتار الأذن. وداعا للتمثال ذي الرخام المماثل لجسد الإنسان، الذي يشرق الإله من قسماته الجامدة.

وداعا للوحات، للعاطفة الرفيعة والمعرفة العميقة المرسومة على القماش، للمناظر الفردوسية حيث الأشجار دائمة التفتح، ويرتع الجوّ البهيّ بألق أبدي، للعاصفة الحبيسة في ذلك البرواز الضئيل. وداعا للموسيقى، ولصوت الأغاني. وداعا لتزاوج المعازف، حيث تمتزج الأوتار الحادة والناعمة في نغم عذب، لتبلغ خفايا اللذة الخالدة. وداعا للمسرح، فقد صار العالم الفسيح مسرحا لمأساة حقيقة لا يضاهيها الحزن الكاذب. للكوميديا ومهرّجيها الموتى وداعا، ولا أضحك الله امرأ أبدًا. واحسرتاه! فما تعدادي لمآثر البشرية إلا إظهار لعظمة الإنسان البائدة. كل ذلك انقضى الآن. صار الإنسان منزويا على نفسه. يلتفت خلفا إلى ما ترك، كآدم وحواء لمّا طردا من الفردوس. بيد أن جدران القبر العالية، وسيف الطاعون اللاهب يحولان دونه وما ترك. فصارت الأرض في عينيه كما رآها آدم وحواء صحراء شاسعة. ليحرث الأرض ضعيفا بلا ناصر، وليجل بين حقول الحنطة القاحلة وأشجار زرعها أسلافه، وبين المدن التي عمرت ليسكنها. لم يعد للازدهار وجود، ولم يبق من الحب والطموح إلا أسماؤها الخاوية من المعنى. هنيئا للأنعام الراعية في الحقول، تنام قريرة في الليل جاهلة بالماضي وغير آبهةٍ بالمستقبل، فخير مهوّن للعذاب هو الجهل.

يسبغ السرور إن حضر ألوانه على كل فكرة وحركة. فالسعيد لا يحسّ بالفقر، ذلك أن البهجة كالثوب المنسوج من الذهب، وكالتيجان المرصعة بأثمن الأحجار. يتخذ المرح

دور الطبّاخ لهم، ويخلط السكرة لهم في شرابهم الباهت. يفرش أثاثهم الخشن بالأزهار، ويهون عليهم شقاء العمل. بينما يضاعف الحزن ثقل كاهل المتعبين، ويزرع الشوك في وسائدهم القاسية. يمزج الكدر بالماء، ويضيف الملح إلى خبزهم المرّ. يلبسهم الأسمال ويحثّوا الرماد على رؤوسهم الحاسرة. ولما كنّا في محنة لا صلاح لها، صار كل عناء نلقاه وإن كان تافهًا ذا ثقل عظيم. شددنا أحزمتنا لنحتمل ثقل الرزية الملقاة علينا، بيد أن قشّة قصمت ظهورنا. كان كثير من الناجين ممّن نشؤوا في رغد؛ أمّا الآن، فقد فرّ عنهم خدمهم وزالت سلطتهم الآمرة كزوال الظلّ الكاذب. والفقراء -أيضًا- عانوا مصائب متنوّعة أخرى. باتت فكرة قضاء شتاء آخر كالذي فات أمرًا مرعبًا بالنسبة لنا. ألم يكن كافيا أننا ميتون حتما، ليضاف الشقاء إلى ذلك؟ أيجب علينا أن نعد طعام جنائزنا بجهد مضن، ونكبّ الحطب في الموقد بعناء غير مسبوق؟ أيجب علينا أن ننسج بأيد العبودية أثوابا توشك أن تكون لنا أكفانا؟ لا! لن يكون الأمر كذلك. فإن كان الموت مآلنا، فلنستمتع بما تبقى من حياتنا إلى أقصى حد. أغرب أيها البخل المقيت! لا ينبغي للأعمال الدنيئة والألم، التافهة قدرا والهائلة جهدا على قوانا المنهكة، أن تكون حاضرة في وجودنا الزائل. في البدء، لما كان الإنسان كحالنا الآن، يحيا في عوائل لا في قبائل أو شعوب، كانوا في مناخ معتدل. حيث تطعمهم الأرض بلا حرث، ويلفّ الجو اللطيف أجسادهم النائمة بدفء أهنأ من السرائر الوثيرة. الجنوب أصل البشرية، تلك أرض الفاكهة

والإحسان للإنسان، بعكس الشمال المضني. تلك أرض الأشجار التي تفوق فروعها جمال أسقف القصور، أرائكها من زهر، وعنبها شفاء للعطش. هناك لن يمسّنا خوف من برد أو جوع.

انظر إلى إنجلترا! يرتفع العشب في مروّجها عاليا، بيد أنه شديد الرطوبة والبرد ولا يصلح سريرا لنا. لا حنطة تنمو هنا، ولا تستطيع فواكه البرية أن تعيلنا. يجب علينا أن نطلب النار في فجاج الأرض، وإلا ملأنا الجو القاسي بالأمراض والأوجاع. لن يكون هذا الركن صالحا لحياة الإنسان إلا بجهد مئات الآلاف. إلى الجنوب وشمسه إذن! حيث الطبيعة السمحاء، وحيث أسبغ جوبيتير رضاه على قرون أمالثيا، حيث الأرض جنة.

ذوى مجدك يا إنجلترا، وتركك أبناءك يا مولد الامتياز ومدرسة الحكماء. كنت نصر الإنسان يا إنجلترا! لم يحبك الخالق إلا بقليل من النعم، يا جزيرة الشمال. أرض وعرة الطبيعة، لونها الإنسان بجهده. بيد أن ألوانه بهتت ولن تشع أبدًا من جديد. وجب علينا تركك يا أعجوبة العالم. وأن نودّع غيومك، وبردك، وندرة طعامك إلى الأبد. تظلّين مكلّلة بالشرف وإن أوشكت حكاية بأسك وحريتك أن تنتهي. محرومة من الناس أيتها الجزيرة الصغيرة، ستأكلك الأمواج، وترف الغربان أجنحتها فوقك. ستصير أرضك منبتا للحشائش وتظلل سماؤك القفر أسفل منها. لم تنالي شهرتك لوردك

الفارسي، أو لموزك الشرقي؛ لا لبهارك الهندي ولا لسكرك الأمريكي؛ لا لعناقيد عنبك أو لوفرة محاصيلك؛ لا لهوائك الربيعي ولا لشمسك الدافئة؛ إنما عرفتي بأبنائك، بكدهم الدؤوب وطموحاتهم العالية. ذهبوا عنك، وستذهبين أنت أيضا، ماشية على الطريق المؤدي إلى النسيان.

وداعا أيتها الجزيرة الحزينة، فقد أزفت ساعتُك.

ولم يعد لك مكان في الحياة.

الفصل الثاني

في خريف العام ٢٠٩٦ سرت فكرة النزوح بين القلة الناجية، والذين تقاطروا من مختلف أنحاء إنجلترا ليجتمعوا في لندن. لم تكن الفكرة إلا أمنية واهية بعيدة المنال، إلى أن بلغت أسماع أدريان الذي سرعان ما انشغل بوضع الخطط لتنفيذها. ارتفع الخوف من الموت العاجل مع انقضاء دفء سبتمبر. كان أمامنا شتاء آخر لنعيش ونختار خير سبيل لاستغلاله على أفضل وجه. قد يكون الخيار الأمثل، في ميزان العقل، أن نتّخذ سبيل النزوح الذي سيبعدنا عن حياة الويلات هذه، عبر بلدان ذات مناظر خلّابة تسلي حزننا. ما إن طرحت الفكرة حتى تاق الجميع إلى البدء بتنفيذها.

كنا لا نزال في وينزر، وقد هوّن تجدّد الأمل علينا المصائب التي مرّت بنا. أزال موت الكثير ممّن يشاطروننا المسكن فكرة حصانة وينزر من الطاعون. إلا أنّ أملنا بالحياة تجدّد بضعة أشهر أخرى، وعادت الحياة إلى آيدرس، فارتفع رأسها كزنبقة سقاها نور الشمس بعد العاصفة. جاء أدريان إلينا في تلك الأثناء، وظهر في قسماته المتحمّسة أنه يخطّط لأمر ما. أسرع في أخذي جانبا، وأفضى إليّ باستعجال خطّته بالنزوح عن إنجلترا.

أن نترك إنجلترا إلى الأبد، ونصد عن حقولها وبساتينها الموبوءة، جاعلين البحر بيننا. أن نتركها كما يترك البحار الصخرة التي ألقي بحطامه عليها، بمجرد عبور سفينة النجاة بجانبه. تلك كانت خطته.

أن نهجر أرض أبائنا التي تقدّست بقبورهم! لم يكن تركا طوعيا، كحال من رحل عن ترابها للسياحة أو غير ذلك. وإن فصلت بينهم آلاف الأميال، تظل إنجلترا جزءا منه، كما هو جزء منها. يسمع أخبارها، ويعلم أنه لو عاد إليها وباشر حياته من جديد لعادت له مكانته التي كان عليها، أن لا راد له سوى الإرادة والاستسلام للحنين لأيام الصبا. لم يكن ذلك حالنا، نحن الباقين. لم نترك أحدا ليخلفنا ويتناسل في الأرض اليباب، فمات اسم إنجلترا عنها بمجرد رحيلنا...

مشردين نطلب النجاة.

لنمضِ رغمًا عن ذلك! فإنجلترا في أكفانها، ولا يجب أن نقيّد أنفسنا إلى جثّتها. لنمضِ، فالعالم كلّه بلدنا الآن، وسنختار منزلنا في أخصب بقاعها. أينبغي علينا أن نجلس في هذه القصور المقفرة تحت سماء الشتاء، مغلقي الأعين وعاجزي الأيدي بانتظار الموت؟ خير لنا أن نبرز له بشجاعة. ولربما لا تكون كلّ بقاع هذا الجرم البائس موبوءة بالطاعون؛ قد نجد الحياة في ركن قصي من هذه الجوهرة في بساط السماء نائيًا عن الطاعون، ناعمًا بربيع دائم وأشجار لاعبة وجداول ثرثارة.

العالم فسيح، وما إنجلترا إلا جزء صغير منه. وإن بدت أرضها وحقولها ممتدة بلا حدٍّ. قد نصيب العافية بعد مسير يوم فوق الجبال والأودية المثلّجة، لنودع أحبابنا في رعايتها وننمِ بذرة البشرية من جديد. نقصّ على ذرارينا أخبار من عاشوا قبل الطاعون، من أبطال وملاحم العهد السابق.

الأمل يحدونا والحزن يحثّنا، القلوب تخفق بتوقّعات كبيرة، لا بدَّ وأن تكون هذه الرغبة المتأجّجة بالتغيير بشيرا للنجاح. هلموا... وداعا للموتى. وداعا لقبور الأحباب. وداعا للندن العظيمة، لنهر التايمز الساكن، للجبل والنهر والأراضي الخلّابة، لمسقط رأس الحكماء، لغابة وينزر وقلعتها العتيقة، وداعا. ما تلك إلا مواضيع للحكايا، أمّا نحن فالرحيل واجب علينا.

كانت تلك بعضا من حجج أدريان، التي أطلقها بحماسة وسرعة مفحمة. إلا أن أمرا آخر كان يعتمل في صدره، ولم يجرؤ على ذكره. كان على يقين بأن نهاية الزمان قد حانت، وأننا سنتهاوى واحدا تلو الآخر إلى العدم. لم يكن من الحكمة أن ننتظر وقوع ذلك في وطننا الأم. أمّا السفر، فهو مقرب لمقصدنا في كل يوم، وفيه إلهاء لفكرنا عن الانشغال بالنهاية الآزفة. إن ذهبنا إلى روما المقدّسة الخالدة في إيطاليا، التي صارت خرابا، قد نقضي نحبنا هناك صابرين. قد يزايلنا حزننا الأناني في حضرة مشهد خرابها السماوي. كان كل ذلك في ذهن أدريان. إلا أن أبنائي كانوا حاضرين في ذهنه أيضًا، لذا

لم يبح لي بخواطر اليأس تلك، إنما استحضر لي صور العافية والحياة التي سنجد في مكان وزمن ما. بيد أن انعدام وجودها يعني أبدية بحثنا. استمالني لفريق المؤيدين له، قلبا وقالبا.

أوكل إلي أمر إطلاع آيدرس على خطتنا. سرتها صور العافية التي نقلت إليها، فوافقت بابتسامة. وافقت باسمة على ترك بلدها التي لم يسبق لها الغياب عنها قطّ، التي حوتها منذ مولدها. رضيتْ بترك الغابة وأشجارها المهيبة، بطرقاتها وجنباتها الخضر حيث لعبتْ في طفولتها وعاشتْ سعيدة في شبابها. كانت على استعداد لتركها دون أي ندم، إن كان ذلك ثمن لحياة أطفالها. كانوا روحها ومهوى حبّها، وأعزّ من كلّ شيء آخر حوته الأرض. سعد الفتيان لخبر سفرنا. أمّا كلارا، فتساءلت إن كنا ذاهبين إلى أثينا. أجبتها: «ذلك ممكن»، فتهلّل وجهها فرحا. فهناك سترى قبر والديها، والأرض المليئة بآثار مجد والدها. سرعان ما استغرقتها تلك الأفكار بصمت. فكانت ذكراهم ما أحال مرحها الطفولي إلى عبوس، وملأت بالها بالأفكار المقلقة.

كان لنا كثير من الأصدقاء ممّن لم نكن لنترك وراءنا، وإن لم يكونوا بشرا. منهم الجواد المطيع والمفعم بالنشاط، الذي أهدى اللورد ريموند إلى ابنته. وكذلك كلب ألفرد ونسره الأليف الذي عشي بصره لكبر سنّه. إلا أن اختيارنا لما كنا سنأخذ معنا لم يكن ليتم دون حسرة على ما سنترك. تسارعت الدموع إلى عيني آيدرس لما أخذ ألفرد وإيفيلن في جلب زهرة

عزيزة عليهم حينا، ومزهرية رخامية نحتت ببراعة ساحرة، مصرّين على أخذها معنا ومتعجّبين بحزن من عدم مقدرتنا على أخذ القلعة والغابة معنا، بغزلانها وطيورها وكل ما فيها ممّا ألفنا. قلت: «ياَلسخافتكم! تركنا ما هو أعزّ من كل ذلك في سبيل حفظ ما أثمن. لا يجب علينا أن ننسى هدفنا ولو للحظة. سيكون ذلك متراسا مانعا لمشاعر ندمنا على الأمور التافهة».

سرعان ما التهى الأطفال وعادوا إلى انشغالهم بتخيّل ما سيرَون في المستقبل. إلا أن آيدرس اختفت. غابت عن الأنظار لتواريَ ضعفها. خرجت من القلعة وانحدرت إلى حديقة صغيرة، لتفرغ دمعها فيها. وجدتها وقد لفّت ذراعيها حول سنديانة عتيقة، مُقبّلة جذعَها الخشن بشفاهها الوردية، بينما هل دمعها مدرارا وفرّت منها نشجات وعبرات لم تقو على كتمانها. نظرت بحزن عميق إلى تلك التي أحببت وقد غرقت في الأسى! جذبتها إلي ولمّا أحسّت بقبلي على أجفانها وذراعي تضمّانها، عادت إلى ما بقي من وعيها. قالت: «الطف بالغ منك ألّا توبّخني. أنتحب باكية ويمزّق قلبي ألم لا يُحتمل. إلا أنني سعيدة. فالأمّهات ثكلن ذراريهنّ والزوجات بكين أزواجهن، بينما أنت وأطفالي عندي. سعيدة أنا وسعادتي بالغة؛ لأن بكائي حزن على ما أتخيّل، ولأن شعوري تجاه وطني الحبيب لم يتناقص حتى في أحلك المصائب. خذني إلى حيث تشاء. فحيثما أنت وأبنائي تكون وينزر، وكل أرض ستكون إنجلترا لي. لتبك عيوني لا على نفسي السعيدة، بل

لهذا العالم الهالك، لبلدنا الذي سنفقد، للحب والحياة والمرح الذين أضحوا صرعى في منازل الموت».

تحدثت بسرعة وكأنها تحاول إقناع نفسها. أشاحت بوجهها عن الأشجار وطرقات الغابة التي أحبّت. دسّت وجهها في صدري، فانحلّ جلد الرجولة في، وبكينا دموعًا مواسية معًا. ثم عدنا إلى القلعة هادئين، بل جذلين.

دفعنا أول بَرْد أكتوبر الإنجليزي إلى التعجيل في استعداداتنا. أقنعت آيدرس بالذهاب إلى لندن، حيث يمكنها تحضير الأمور الضرورية بشكل أفضل. لم أخبرها بأن السبب وراء ذلك هو تهوين ألم فراق الأماكن التي ألفنا. فقد قرّرتُ ألّا يعود أحد منا إلى وينزر. وقفنا مرة أخيرة في الشرفة لنلقي نظرة على الريف الفسيح، فرأينا آخر خيوط من الشمس وهي تنير جموع الأشجار المرقّشة بألوان الخريف. امتدّت الحقول غير المزروعة والأكواخ الخاوية في الظلال أسفل منا. اجترح التايمز طريقه في السهل، وقامت كلية إيتون الجليلة في بروز واضح وقد ظاهرها الظلام. كسر الصمت نعيب آلاف الغربان الساكنة في أشجار الحديقة الصغيرة، وهي تحلق مسرعة إلى أعشاشها. ظلّت الطبيعة كما كانت، حين كانت أمًّا رؤومًا للبشر. لكن هلاك أطفالها الآن، جعل من تكاثر الكائنات فيها سخرية منا. لِمَ يهب النسيم بخفّة ليهزّ الأشجار، إن كان الإنسان عاجزا عن الإحساس بانتعاشه؟ لم يتزيّن الليل بالنجوم، إن كان الإنسان عاجزا عن رؤيتها؟ لمن الفواكه والأزهار والجداول،

إن لم يكن الإنسان هناك لينعم بها؟

وقفت آيدرس بجانبي، ويدها العزيزة مشبوكة بيدي. أشرق وجهها بابتسامة. قالت: «الشمس وحيدة، لكنّا لسنا كذلك. وسم مولدنا بطالع غريب يا ليونيل العزيز. قضي علينا أن نرقب إبادة البشرية بحزن. لكن بقي لنا أن يعيش بعضنا لبعض. أرجوت يوما وصل غيرك في هذا العالم الفسيح؟ ولم أضجّ بالشكوى إن كنت أنت من بقي من هذا العالم؟ لا تزال أنت والطبيعة أوفياء لي. ما دمت بجانبي في عتمة الليل وفي ضوء النهار المنير لوَحدتنا، فلا ندم حتى على فراق وينزر».

اخترت الليلِ ليكون موعد رحلتنا إلى لندن؛ حتى لا يبدو خراب البلاد أقلّ سوءًا ممّا هو عليه. قادنا خادمنا الوحيد الناجي. اجتزنا منحدر التل وولجنا الممشى الطويل القاتم. في أوقات كهذه تتخذ دقائق الأمور مساحة هائلة من البال. فانفتاح البوابة البيضاء لنخرج منها إلى الغابة شغل فكري كأمر مهم. فعلى كونه أمرًا تافهًا يحدث كل يوم، إلا أنه لن يتكرّر أبدا. تلألأ الهلال الساكن بين الأشجار العملاقة على يميننا، ولمّا دخلنا الحديقة أجفلنا قطيعا من الأيائل التي فرت هاربة إلى ظلمة الغابة. نام طفلانا بهدوء، ومرة أخيرة قبل أن تغيب القلعة عن ناظرنا التفتُ لأراها. لمعت نوافذها تحت ضوء الهلال وجثم هيكلها الحالك مقابلا السماء، وحفت الأشجار القريبة منا لحنا جنائزيا لنسيم الليل. استرخت آيدرس في جلستها في العربة. ضمت يداي بكلتا يديها، كانت ملامحها هادئة وكأن

فقدَ المكان لم يؤثّر فيها ما دام في ذاكرتها.

كانت أفكاري كئيبة وحزينة، إلا أنها لم تخرج عن الحدّ المعقول. كان في البؤس ذاته الذي عانيناه شيء من الراحة هوّنت علينا ما عانيناه من حزن. شعرت بأني أحمل معي أعزّ الناس علي. وسرّني أنني بعد طول فراق سألتحق بأدريان، وأننا لن نفترق أبدا. شعرت بأنني تركت ما أحببت، لا ما أحبّني. فجدران القلعة والأشجار الطويلة التي ألفنا لم تسمع بحسرة صوت عربتنا المغادرة. ولن أشعر بالتعاسة أبدا، ما دمت أشعر بقرب آيدرس منّي وأسمع صوت أنفاس أطفالي. تأثرت كلارا تأثّرا كبيرًا، فانهمر الدمع من عينيها وحاولت كتمان شهقاتها. انحت إلى النافذة لترى آخر لمحة من موطنها وينزر.

استقبلنا أدريان عند وصولنا. كان مفعما بالنشاط ولم تعد ترى فيه أثرًا لما كان عليه من اعتلال صحّة من قبل. لو رأيت ابتسامته وسمعت نغمة المرح في صوته، لما خمّنت أنه من سيقودنا، نحن القلّة الباقية من الشعب الإنجليزي، بعيدا عن موطننا إلى أراضي الجنوب الخاوية، لنموت هناك واحدًا تلو الآخر، إلى أن يبقى آخر إنسان منّا في عالم أصمَّ فارغ.

لم يطق أدريان صبرا الحين موعد رحيلنا، وقطع شوطًا كبيرًا في التحضير لذلك. كانت حكمته حادية كل شيء. كان عطفه الدافع المحرّك للجموع الشقية التي اتكلت عليه بالكامل. كان من العبث توفير الكثير من الأمور، فلا بد من أننا سنجد الكثير

من المؤون في المدن المهجورة. كانت رغبة أدريان توفير المشقة في كثير من الجوانب، ليضفيَ روح المرح الاحتفالية على موكبنا الجنائزي. لم يبلغ عددنا أكثر من ألفَي شخص. لم يكن ذلك عدد الساكنين في لندن، إلا أن كل يوم كان يشهد وفود أعداد جديدة، وقد أمر الساكنون في المدن والبلدات القريبة بالاجتماع في مكان واحد في العشرين من نوفمبر. وفرت العربات والخيول للجميع. أُختير الضباط الكبار ومعاونوهم، ورُتب كل شيء في ذلك الجمع الكبير على أتمّ وجه. أطاع الجميع رئيس إنجلترا المحتضرة وتطلّعوا إليه بتبجيل. اختير مجلسه الاستشاري، وتألف من قرابة الخمسين شخصا. لم يكن لنَسَبهم أو منصبهم دورٌ في اختيارهم. لم يبق من تفاضل في المنازل بيننا، إلا ما أبقينا من الاحترام. لم يبق إلا تفاضل واحد، بين الأحياء والموتى. وعلى استعجالنا لمغادرة لندن قبل منتصف الشتاء، إلا أنن عطلنا عن ذلك. فقد أُرسلت فرق بحث صغيرة إلى كل أنحاء إنجلترا للبحث عن المتخلّفين. أبينا الرحيل إلا بعد أن نتأكّد من أننا لم نترك خلفنا إنسانا على قيد الحياة.

حين وصولنا إلى لندن، علمنا أن كونتس وينزر المسنّة كانت تسكن مع ابنها في القصر الرئاسي. توجّهنا إلى مسكننا المعتاد بالقرب من حديقة الهايد. كانت آيدرس، التي رأت والدتها أول مرة منذ سنوات عديدة، قلقة من أن يخالط خَرف التقدّم بالعمر غرورها القديم، ليجعلا من عداء ابنة الملك لي

عداءً مزمنا. جعَّد الهمّ وكبر السنّ وجهها، وحنى ظهرها، إلا أن نظرتها ظلت حادة، ولم تتغيّر طباعها المتسلّطة. استقبلت ابنتها ببرود ولكن أظهرت شيئا من المشاعر لما ضمّت أحفادها بين ذراعيها. جبلنا على أمل أن تستمرّ شرائعنا وعقائدنا وتزدهر بذرّيتنا. فشلت الكونتس بتمرير إرادتها عبر أبنائها؛ لذا علّها أملت بأن تجد في الخلف الجديد انقيادًا لإرادتها. ما إن نطقت آيدرس باسمي حتّى على تجهُّم وجه أمّها، وبدا عليها انفعالُ الغضب، وقالت بصوت يفيض غيظًا: «لم يعُد لي شأنٌ في هذا العالم. ولا أحسب الشبان يطيقون صبرا لأن يطيحوا بالمسنّين خارج الحياة. لكن إن أردتِ ألا تري والدتك تفارق الحياة عند قدميك يا آيدرس، فلا تذكري اسم ذلك الشخص لي أبدا. أستطيع تحمّل كل شيء عدا ذلك. أسلمت أمري وسلّمت بفشل أحلامي؛ لكن لا أطيق أن يطلب إليّ أن أحبّ الشخص الذي سلّطه القدر عليّ ليحطّمني».

كان ذلك كلاما غريبا، ففي هذا العالم الخالي لكلّ منّا أن يقوم بما يشاء دون إعاقة من الآخر. إلا أن الملكة السابقة المتغطرسة كانت ترانا كأوكتافيوس قيصر ومارك أنتوني، لا يحلّ لنا أن نعيش معًا في هذا العالم.

حُدّد موعد رحلتنا في الخامس والعشرين من نوفمبر. كان الجوّ معتدلا، سبقه غيثٌ خفيف في الليل، وفي النهار أشرقت شمس الشتاء علينا. أُمرنا بأن نسير في مجموعات متفرّقة، وأن نسلك طرقا مختلفة إلى أن نجتمع في باريس. كانت مقرّرا

لمجموعة أدريان المؤلّفة من خمسمئة شخص أن تسلك طريق دوفر وكالية. في العشرين من نوفمبر، ركبت وأدريان آخر مرة في شوارع لندن. كانت مهجورة وقد نمت الحشائش طويلة فيها، وأبواب القصور الخاوية مفتوحة. سرعان ما غطّت الأعشاب أعتاب المنازل، وتكوم التراب عليها. شقّت قباب الكنائس الصامتة السماء الخالية من الدخان. كانت الكنائس مشرعة، لكن لم يكن هناك أحد ليصلي عند المذبح. أزال العفن والرطوبة كلّ حُسن عن زينتها. وصارت وكرًا للحيوانات الأليفة المشرّدة، وللطيور التي بنت أعشاشها في أقدس بقعها. تخطّينا كنسية القديس بولس. كان قلب لندن خاويا، لندن التي امتدّت ضواحيها في كل جانب. أمّا الكنسية الضخمة، فعريت ممّا كان يكسوها. فبدت بهيكلها الهائل وحجرها الأسود وقبابها العالية وكأنها قبرٌ لا معبد. وبدا لي وكأنه نقشٌ على رواقها «هنا يرقد أهل إنجلترا». مضينا شرقا، وانخرطنا في حديث كئيب مستلهم ممّا كنا فيه. لم نسمع خطوَ بشرٍ أو نرَ منهم أحدًا. مرّت بنا قطعانٌ من الكلاب الفارّة من أصحابها. وبين الحين والآخر كان يقترب حصان منا، بلا سرج ولا لجام، محاولا لفت انتباه الخيول التي تحتنا وكأنه يدعوها لطلب الحرية. فجأة خار ثور كان يقتات على مخزن قمح مهجور، ثم أطلّ بجسده الهزيل من باب ضيق. كان كل شيء مهجورا، ولم يكن هناك إلا الخراب. كان التناقض صارخا بين تلك المباني السليمة والمنازل الفخمة جديدة البناء، وبين صمت الشوارع الخالية من البشر.

حلّ الظلام وبدأ المطر بالهطول. كنّا على وشك الالتفات للعودة إلى المنزل حين جذب انباهنا صوت غريب سماعه في تلك الأثناء. كان صوتا بشريا. كان صوت طفل يغنّي أغنية لطيفة مرحة، ولم يكن معه أيّ صوت آخر. مشينا عبر لندن من حديقة الهايد إلى أن وصلنا مكاننا هذا في شارع الماينوريز، ولم نقابل شخصا واحدًا أو نسمع صوت خطًى. قاطعت ضحكات وشيء من الكلام تلك الأغنية. كان أغرب وقت لتلك الأغنية السعيدة، ولم تكن من ضحكة أكثر مدعاة للبكاء من تلك الضحكة. كان باب المنزل الذي صدرت منه تلك الأصوات مفتوحا، وغرفه العليا منارة لحفل ما على ما يبدو. كان بيتا فسيحا، سكّانه من الأغنياء بلا شكّ. بدأ الغناء من جديد ورنّ في أرجاء الغرف، بينما صعدنا الدرج بصمت. تبعنا الأضواء إلى أن بلغنا جناحا منيرا وفخم الغرف، فازددنا حَيرة. كان الساكن الوحيد في تلك الغرف فتاة صغيرة ترقص الفالس وتغنّي في أرجائها. يتبعها كلب من فصيلة نيوفاوندلاند، ويقفز حولها بصخب مقاطعًا إياها، فيجعلها توبّخ حينا وتضحك حينا آخر، أو ترمي بنفسها على السجّاد لتلعب معه. كانت ملابسها غريبة الشكل، ثوبا وشالًا لامعَين يليقان بامرأة، بينما بدت وكأنها في العاشرة من عمرها. وقفنا عند الباب ننظر إلى ذلك المنظر الغريب، إلى أن لاحظ الكلب وجودنا فنبح بصوت عالٍ. التفتت الطفلة فرأتنا، فارقت البهجة وجهها وعلاه تجهُّم. تراجعت إلى الخلف وبدا أنها تبحث عن مهرب. اقتربت منها وأمسكت بيدها، لم تقاوم بل تسمّرت في مكانها بوجه عابس غريب عن الطفولة وعن

مرحها الذي كانت عليه، وأخفضت بصرها إلى الأرض. قلت لها بهدوء: «ما الذي تفعلينه هنا؟ من أنت؟». أخذت ترتعد بعنف، إلا أنها ظلّت صامتة. قال أدريان: «يا لَفتاتي المسكينة! هل أنت وحيدة؟» كان في صوته رقة مستميلة نفذت إلى قلب الفتاة الصغيرة. نظرت إليه ثم انتزعت يدها مني وألقت بنفسها بين ذراعيه، متشبّثة به صارخة: «أنقذني، أنقذني!» بينما تلاشى تجهُّمها الطارئ وسط دموعها.

أجابها: «سأنقذك. ما الذي يخيفك؟ لا داعي للخوف من صديقي فلن يمسّك منه أذى. هل أنت وحيدة؟».

«لا. ليون معي».

«ماذا عن والدك ووالدتك؟».

«ليس لي أب ولا أم. أنا ابنة مَيتَم. ذهب الجميع منذ أيام بعيدة، لكن إن عادوا ووجدوا أنني خارج الميتم، فسيضربونني!».

اختصرت لنا قصتها الحزينة بهذه الكلمات الموجزة: يتيمة أُخذت إلى ملجأ أيتام، وهناك عوملت بقسوة واستغلال، ثم مات مضطهدوها. ولمّا كانت غير عالمة بما كان يجري حولها، وجدت نفسها وحيدة. لم تجرؤ على الخروج بداية، إلا أنّ طول عزلتها زادها جرأة فانطلقت بحيوية الطفولة صحبة رفيقها الأليف لتمضيَ إجازة طويلة، لا تخشى شيئا فيها إلا عودة أربابها القساة المتوحّشين. قبلت بسرعة الذهاب مع

أدريان.

في تلك الأثناء، انغمرنا في حزن غريب ووحشة أصابت أبصارنا لا قلوبنا، وأخذنا نتخيّل البلايا التي حلّت بهذه الشوارع التي كانت مكتظّة بالسكّان، قبل أن تخلوَ ويهجرَها ساكنوها؛ لتصير مأوى للكلاب وحظيرة للأنعام. رحنا نستقرأ موت العالم في ملامح الأرض، ونستذكر مهوّنين على أنفسنا بأنّ أحبابنا لا يزالون على قيد الحياة.

وصلنا من وينزر في أول أكتوبر، ومضى على وجودنا في لندن ستة أسابيع. يوما بعد يوم، في تلك المدّة، أخذت صحّة عزيزتي آيدرس بالتدهور. كان قلبها كسيرا، منقطعة الشهية والنوم. قام الممرضون المنتقون على رعاية جسدها الهزيل. لم تقض وقتها إلا بمراقبة أطفالها، أو الجلوس بجانبي مقتاتة على سلامتي لها. ذهبت عنها حيويتها المعتادة، بهجة وجهها، نبرة صوتها اللطيفة، ومشيتها الرشيقة. لم أستطع إخفاء قلقي، ولم تستطع هي إخفاء حزنها الذي يتآكلها. إلا أنّ الأمل في أن يعيد السفر وتغيّر البيئة من حولها العافية إليها. كان خوفي الوحيد من الطاعون، ولم يكن الطاعون مصدر قلق بالنسبة لها.

تركتها ذلك المساء لترتاح بعد عناء التحضير. جلست كلارا بجانبها تحكي قصة للصبيّين. كانت عينا آيدرس مغمضتَين. لاحظت كلارا تغيُّرا مفاجئًا في الصبي الأكبر، فقد فترت أجفانه وعلت خدّيه حمرةٌ غيرُ طبيعية، وضاقت نفسُه. التفتت

كلارا إلى الأم. كانت لا تزال نائمة، إلا أنها جفلت لانقطاع صوت الراوية. لما خشيت كلارا من أن يوقظ صوت إيفيلن الطالبِ بقيةَ الحكاية أمَّه ويُرعبها، استمرّت في سرد القصة. تنقل بصرها بين آيدرسِ وألفريد. استمرّت في سرد القصة بنبرة مرتعدة حتى رأت أنّ الطفل يوشك على الوقوع. صرخت هلعًا وأسرعت إليه ممسكة إيّاه، فاستيقظت آيدرس. نظرت إلى ابنها، فرأت الموت ينسلّ في ملامحه. مددته على السرير وقرّبت شرابا من شفاهه الجافّة.

كانت هناك فرصة له بالنجاة. لو كنت هناك، لربّما كان ذلك. وربّما كان ما أصابه أمرّا غيرَ الطاعون. ما الذي كانت لتفلعه دون مُعينها، سوى النظر إليه وهو يموت؟ لم كنت بعيدا في تلك اللحظة؟ هتفتْ: «انتبهي إليه يا كلارا، سأعود حالا».

نشدت من سكنوا معنا في منزلنا، بعد فرزهم، ليكونوا رفاق رحلة البحث عن مكاني. فأجابوها بأنهم لا يعلمون شيئا سوى أنني خرجت مع أدريان. رجتهم أن يبحثوا عني، وعادت إلى طفلها. كان غارقا في خدرٍ مخيف. فعادت تنزل الدرجات مسرعة من جديد. لم تجد إلا الظلمة والخواء، لم تعد تتمالك نفسها، فخرجت إلى الشارع صارخة باسمي. لم يجبها إلا وقعُ المطر وصفير الرياح. دفع الخوف الشديد ساقيها، فراحت تركض باحثة عني. لم تدرِ أين، إنما صبّت كل فكرها وطاقتها على الإسراع فقط. لم تشعر بتعب أو خوف ولم تقف قطّ، حتّى خذلتها قوتها فجأة. خارت قواها فسقطت فجأة وبقوة

على الشارع. شُدِهَت وهلةً ولكن بعد برهة قامت برغم الألم الشديد، واستمرّت في المشي ساكبة نهرا من الدموع. تعثر حينا وتمشي حينا آخر، لا تدري إلي أين. وبين الحين والآخر تنادي اسمي بصوت واهن، قائلة بأني قاسٍ وغير لطيف. لم يكن هناك بشر ليجيبها. بل إنّ شدة تلك الليلة دفعت الحيوانات إلى اللجوء إلى المنازل التي اغتصبتها. كان ثوبها الرقيق مغرقا بالماء، وشعرها المبلّل متشبّث بعنقها. ترنّحت في الشوارع المظلمة إلى أن ضربت رصيفا لم تره فسقطت مجدّدًا، ولم تقوَ على النهوض. استطاعت بمشقة جمعَ أطرافها، ثم أسلمت نفسها إلى غضب الطبيعة، وحزن قلبها المرير. دعت مخلصة بأن تموت سريعا، فلا راحة لها إلا في الموت. ولمّا يئست من نجاتها، راحت تندب طفلها المحتضر، وبكت عليّ لما سأقاسي من فَقدِها. في تلك الأثناء، حين أوشكت الحياة على مفارقتها، شعرت بدفء يدٍ على جبينها، وسمعت صوت امرأة لطيف يسألها بحنان ورحمة، إن كانت تستطيع الوقوف؟ لا بدّ وأنّ تلك المرأة اللطيفة كانت قريبة المسكن منها. وأثناء ما كانت تلك المرأة تقيمها، انخرطت في نوبة بكاء جديدة، راجية إيّاها أن تبحث عنّي وأن تطلب إليّ الإسراع إلى ابني المحتضر لأنقذه.

أقامتها المرأة وأخذتها إلى مكان يقيها، ورجتها أن تعود إلى المنزل، فلعلي أكون هناك. اقتنعت آيدرس بسهولة بكلامها، فاتكأت على صاحبتها ومشت، إلا أنّ دوارًا لا يحتمل أجبرها

على التوقّف بين الحين والآخر.

عجّلنا بالعودة لما اشتدّت العاصفة. وكان هناك جمع من الناس أسفل رواق منزلنا. رأيت في ملامحهم وحركاتهم ما يشي بوقوع أمر جلل، مصيبة جديدة. قفزت من فوق حصاني مسرعا، ولم أسأل أيَّ سؤال خوفًا من الجواب. رآني الجمع وعرفوني، فأفسحوا لي بصمت مريع طريقا للعبور. أخذت مشعلًا وانطلقت صاعدًا الدرج. سمعت أنينًا ففتحت أول باب اعترضني دون أيّ تفكير. كان الظلام حالكا. عندما خطوت داخلا الغرفة انقضت رائحة نتنة على أنفي، مثيرة اشمئزازي، بينما شعرت بقدمي تحاط بيد ما وسمعت ذلك الأنين من الشخص ذاته الممسك بقدمي. أخفضت مشعلي فرأيت زنجيًّا يرتعش من شدة ألم الطاعون، بينما قبضت يده المتشنجة علي. حاولت التخلّص منه وقد تملّكني الرعب والهلع، فسقطت فوقه. لفّ ذراعيه المتقرّحتين حولي، وقرّب وجهه من وجهي، فتنفّست أنفاسه المشبعة بالموت. تهت وهلة وغمرني غثيان شديد، إلى أن عدت إلى رشدي فقفزت دافعا ذلك البائس عني. صعدت الدرج راكضا إلى الشقّة التي تسكنها عائلتي. أظهر لي ضوء خافت ألفرد وهو مستلقٍ على أريكة. كانت كلارا ترتعد وقد شحب لونها حتى لصارت أشدّ بياضًا من الثلج. رفعته ثم أسندته بذراعها ورفعت كوب ماء إلى شفتَيه. رأيت جليًّا أنّ جذوة الحياة فارقت ذلك الجسد. كانت ملامحه جامدة، بصره شاخصا ورأسه ساقطا إلى الخلف. أخذته منها ووضعته

أرضًا بلطف، قبلت فمه الصغير البارد والتفت لأتحدّث بهمسٍ لا جدوى منه، فحتّى دوي أعتى المدافع غير بالغه في مسكنه الذي آل إليه.

وأين كانت آيدرس؟ كان نبأ خروجها للبحث عني وعدم عودتها أمرًا مجزعًا، فالمطر والرياح العنيفة ما فتئت تصفق النوافذ وتصرخ حول المنزل. بالإضافة إلى الإحساس بالمرض الذي غشيني. لم يكن هناك وقت لأضيّعه إن أردت رؤيتها مجدّدا. ركبت حصاني وانطلقت خارجا للبحث عنها، متوهّمًا صوتها في كلّ عصفة ريح، وملتهبة الجسد بحمى وألم فظيعَين.

جلت تحت جنح الظلام والمطر في شوارع لندن الخاوية. جثّة طفلي الميت مسجاة في المنزل، ونبتت بذرة الطاعون المميت في صدري. مضيت هائمًا وحيدًا باحثًا عن محبوبتي آيدرس، بينما انصبّ المطر من السماء كطوفان ليبلَّ رأسها العزيز ويبرده، وينمل أطرافها الرقيقة. وقفت امرأة عند عتبة أحد الأبواب، ونادت علي بينما عدوت ناحيتها مسرعا. لم تكن آيدرس لذا أكملت طريقي، إلى أن نظرت مرة أخرى فارتدت لي صورة خيال بجانب المرأة. جسد امرأة رشيقة طويلة، وقفت مستندة على المرأة. في لحظة كنت بجانب المنادية، وآيدرس المنهكة بين ذراعي. حملتها ووضعتها على الحصان. لم يكن بها من طاقة للحركة، فركبت خلفها وضممتها إلى صدري لافًّا معطفي حولها. أمّا صاحبتها التي كانت معروفة لنا، فقد

كانت جوليت ابنة أحد الدوقات، فلم تنل مني في لحظة الهلع تلك إلا نظرة شكر عابرة. أخذت عِنان الحصان وقدت جوادنا الطيع إلى المنزل. هل أجرؤ على الاعتراف؟ كانت تلك آخر لحظات سعادتي، إلا أنني كنت سعيدا. آيدرس ستموت حتمًا فقلبها كسير. وأنا سأموت حتما فقد دخلني الطاعون. كانت الأرض خرابًا والأمل جنونا. تزوّج الموت والحياة فصارا كيانا واحدا. لذا كان احتضاني لحبيبتي المنهكة وشعوري بدنو موتي سببًا في استمتاعي بقربها مرة أخيرة. قبّلتها مرة تلو الأخرى وضممتها بشدة إلى صدري.

وصلنا إلى منزلنا. ساعدتها على النزول من على الحصان، وحملتها صاعدًا الدرج إلى أن أسلمتها إلى كلارا لترعاها ولتغيّر ملابسها المبلّلة. أبلغت أدريان بسلامتها بإيجاز، وطلبت أن نُترك الآن لنرتاح. كنت كالبخيل العائد إلى كنزه ليعدّه مجدّدا، أحسب لحظاتي مع آيدرس وألعن كل لحظة لم تكن معها. عدت سريعا إلى الغرفة حيث ترقد حياة قلبي. توقّفت بضع لحظات قبل أن ألج الغرفة لأرتّب مظهري. كان المرض متمكّنا مني وبي رعشة منه، ثقيل رأسي، صدري يمزّقه الألم، وساقاي تقويان بمشقّة على حملي. طرحت أعراض المرض التي ظهرت سريعا عنّي، ودخلت على آيدرس بوجه هادئ بشوش. كانت مستلقية على أريكة ما. أقفلت الباب بحرص حتى لا يزعجنا أحد. جلست بجانبها فتعانقنا والتقت شفاهنا بقُبلة طويلة غير منقطعة. ليتَها كانت تلك آخر لحظة في

عمري!

استيقظت مشاعر الأمومة في صدر فتاتي، فسألت: «ماذا عن ألفرد؟».

أجبتها: «آيدرس كتبت النجاة لي ولك، نحن معا. لا تدعي أي فكرة تعكر صفو ذلك. أنا سعيد حتى في ليلة الموت هذه، أهتف معلنًا بسعادتي التي تفوق وصف الكلام وتصوّر الأذهان. أي شيء تطلبين بعد ذلك يا عزيزتي؟».

فهمت آيدرس مغزاي، فأحنت رأسها على كتفي وناحت. عادت لتسأل: «لِمَ ترتجف يا ليونيل، ما الذي يرجفك هكذا؟».

أجبت: «علّ سبب ارتعاشي، على سعادتي، هو موت طفلنا وسوداوية الموقف المنذر بالشر. قد ترينني مرتجفا، إلا أنني سعيد يا عزيزتي آيدرس، سعيد جدا».

قالت: «أفهم ما تعني يا حبيبي، وأرى الشحوب في وجهك حزنا على فقيدنا. حضورك مهوّن لحزني وفجعي، وإن كنت مرتجفا شاحب اللون. أمّا أنا، فلست سعيدة -انفجرت عيناها بالدموع- فما نحن إلا رفاق في سجن البؤس ولا فرح لنا. وما يعينني على تحمّل هذه الرزية وكلّ مصاب سواها إلا حبي الذي أحمل لك في صدري».

قلت: «عشنا سعداء معًا على الأقل، لن يسلبنا أيّ مستقبل مظلم ذلك الماضي. أخلصنا بعضنا لبعض سنوات، منذ أن

جاءت محبوبتي الأميرة الجميلة ماشية في الثلج إلى كوخ فيرني المتواضع الفقير. والآن ونحن مشرفون على الموت، لا نجد معينًا للأمل إلا في وجود أحدنا للآخر. أتحسبين أنّ الموت مفرق لنا يا آيدرس؟».

«نموت! حين نموت! ما الذي تقصده؟ أي سرّ مستتر في هذه الكلمات المرعبة؟».

أجبت مبتسما: «أوليس الموت حقّا على الجميع؟».

«يا إلهي! هل أنت مريض يا ليونيل لتطري الموت؟ أجب، يا أعز الناس ويا روح روحي!».

أجبت: «لست أحسب أننا سنعيش طويلا. حين تهوي الستارة لختام هذه الحياة الفانية، أين سنجد أنفسنا برأيك؟».

هدأت آيدرس لما رأت من هدوء ملامحي وثقة نبرتي. أجابت: «أظنّك تدري بأنّ فكرة الموت طرقت بالي كثيرا في زمن الطاعون الطويل هذا. لطالما فكّرت فيه وسألت نفسي عن مآل البشرية بعد فنائها. انشغلت في تلك الأفكار ساعات طوال، وجاهدت الوصول إلى نتيجة منطقية لما سيكون عليه الأمر. لن يكون الموت سوى فزّاعة، إن كان الأمر مجرد نزع لأجسادنا التي نحن فيها وانتقال إلى حياة ملؤها المعرفة والحبّ مع أحبابنا الذين عهدنا، مستأنفين مشاعر المحبّة ذاتها بلا كدر وخوف ممّا كان يعكّرنا في الأرض. لكن للأسف، الشعور ذاته الذي يدفعني للإيمان بأنني لن أفنى كلّية، يدفعني

للإيمان بأنني لن أحيا كلية كما أنا الآن أيضًا. إلا أنني لن أحبّ سواك أبدا يا ليونيل، وإلى الأبد لن أرغب برفيق سواك. وأنا على يقين بأن خالق الكون لن يفرقنا يقيني بأنني لم أظلم أحدا يوما».

قلت: «كلامك مثلك يا عزيزتي، حسن ولطيف. لنعتنق إيمانك هذا ونطرد كل قلق من أذهاننا. بيد أننا يا عزيزتي مجبولون -ولا خطيئة في اتباع الإنسان لما جبله الخالق عليه- على حبّ الحياة والتعلّق بها. جبلنا على حبّ ابتسامة الأحياء، لمسة العاطفة وصوت الحياة التي تفردت بها أجسادنا الفانية. لذا، لا يغفلنا إيماننا بحُسن العاقبة، عن الانتباه لحاضرنا. هذه اللحظة على قصر مدّتها بعض من النعيم. أنت سؤلي في المستقبل، وفرحي في الحاضر. دعيني أنظر في عينيك العزيزتين؛ لأرى الحبّ فيهما وأشرب منهما لذّة مسكرة».

نظرت آيدرس إليّ بخوف مثاره انفعالي. كانت عيناي محتقنتين بالدم المندفع إلى رأسي. خيّل إليّ أنّ نبض كلّ عرق في جسدي كان مسموعًا، وأنّ كلّ عضلة في جسدي انقبضت. أنبأتني نظرتها المرعوبة بأنني لم أعد قادرًا على إخفاء سرّي. قلت: «ها قد حانت آخر ساعة في حياتي يا حبيبتي، ولسنا نستطيع دفعًا للقدر. لن أعيش طويلا، لكن أعيد ما قلت بأنّ هذه اللحظة هي لحظتنا».

علمت آيدرس بما أصابني، فاهتزّت ملامحها وشحب

لونها حتى صارت أشد بياضًا من الرخام. لفت ذراعي خصرها وأنا جالس بجانبها. فأحسّت بحرارة الحمّى التي ألهبت راحة يدي. قالت بصوت يكاد يُسمع: «أمهلني لحظة».

جثت وغطّت وجهها بيديها ودعت بإخلاص أن تتمكّن من تأدية واجبها، وأن تقوم على رعايتي إلى نهاية المطاف. كان هناك بصيص من الأمل، إلا أنّ الألم كان لا يحتمل. انقلب حالها إلى الكآبة والحزن الهادئ، وكأنّ تلك خاتمة الحياة. وكما أُسلمت إيبكاريس رابطة الجأش والجنان إلى التعذيب، كذلك فعلت آيدرس طوعا بأن كتمت زفراتها وعلامات حزنها لتجاهد العذاب.

كانت لحظة معرفة آيدرس لما حلّ بي اللحظة التي أخارت عزيمتي وهدّت تماسكي. انحسرت عني أمواج التظاهر برباطة الجأش، وانكشف ما كان تحتها من بلاء. قلت: «أنا مريض فعلا، وصحبتك هي علاجي الوحيد يا آيدرس. تعالي واجلسي إلى جانبي».

مددتني على الأريكة وقربت مقعدًا منخفضًا جلست عليه قريبة من رأسي، وضمّت بيديها الباردتين يديَّ الملتهبتين. طاوعت نشاط الحمّى الذي أصابني، استمعت إلى حديثي وتحدّثت إليّ. خضنا في أمور غريبة على من كانوا يقضون آخر ساعة لقاء مع حبّهم. تحدّثنا عن أيام مضت، عن سعادتنا في أول أيام حبّنا، عن رايموند، برديتا، وإيفادني. تحدّثنا عمّا

ستكون هذه الأرض عليه لو كتبت النجاة لزوج من البشر، وكيف سيملأنها ببطء بالبشر. تحدثنا عمّا سيلي القبر. ولمّا كان الإنسان بهيئته المادية موشكا على الانقراض، آمنا بأنّ أرواحا وعقولا غير مرئية لنا ستعمّر هذا الكون الفسيح الجميل الخالد.

لا أدري كم تحدثنا، ولكني أفقت من نوم عميق مؤلم صباحا. كان خدّ آيدرس الشاحب على مخدتي. كشف ارتفاع أجفانها عن الانطباق الكامل عن زرقة عينيها الساحرتين. كانت شفاهها مفرجة تتمتم بكلمات دلّت على أنها كانت تعاني حتّى في نومها. قلت لنفسي: «أي فرق سيكون لو كانت ميتة؟ فالآن تسكن روح سماوية جسدها، وتنطق عيونها بما في روحها، وفي صدرها يجتمع كل الحب والحنان والذكاء. لكن ماذا سيكون مصير روح أعز الناس علي إن ماتت؟ فسرعان ما ستشوّه ملامح جمال هذا الجسد وتدرس، كما اندرست أطلال معابد تَدمُر في الصحراء».

الفصل الثالث

جفلت آيدرس واستيقظت من النوم. بيد أنها، ممّا يؤسف عليه، أفاقت على بؤس. فقد رأت ملامح المرض في محياي، وتساءلت كيف تركت الليل يمرّ من دون أن تحاول علاجي، أو تخفيف آلامي إن لم يكن للشفاء من سبيل. أرسلت إلى أدريان وسرعان ما أحيطت أريكتي بجمع من الأصدقاء والأطباء، الذين باشروا بتحضير الأدوية الملائمة. كان ما ميّز ذلك الطاعون المريع أنه لم ينج أحد ممّن أصيبوا به قطّ. لذا كانت أولى أعراضه حكما بالموت لا يعقبه عفو ولا إرجاء. لذا لم تكن هناك بارقة من أمل لترفع معنويات أصحابي.

أسرت الحمّى فيّ خدرًا شديدًا وألمًا حادًّا حتى لكأنّ أطرافي مثقّلة بالحديد؛ ومع تنفّسي بصعوبة بالغة لم أكن أشعر بشيء سوى الألم أثناء صحوي، إلا أن غاب عنّي حتى ذلك الشعور. استيقظت في النهار الرابع وكأنني أفقت من غيبوبة. شعرت بعطش بالغ ولمّا حاولت الحركة لم أجد إلا خوار القوة.

لم تفارق آيدرس جانبي لثلاثة أيام وليالٍ. لبّت جميع احتياجاتي دون نوم ولا راحة. لم تأمل النجاة لي، لذا لم تشغل نفسها بالطبيب ولا بملاحظة أعراض التحسّن. لم يكن

في بالها أمر سوى أن تظلّ بجانبي إلى النهاية، ثم أن تستلقي هناك إلى أن تموت. فارقتني ملامح الحياة في الليلة الثالثة، وخيّل للناظر واللامس أنني متّ. حاول أدريان راجيا وبالقوة أحيانا أن يبعد آيدرس عني. رجاها بحق أطفالها ونفسه وكل شيء. هزّت رأسها رافضة، مسحت دمعها المنهمر على خدّها الضامر، ورفضت التسليم لهم. رجتهم بحرارة أن يسمحوا لها أن تظلّ عندي لليلة أخرى فقط، حتى فازت بما أرادت. جلست بصمت وسكون بجانبي، لا يحرّكها إلا ذكرى لا تطاق فتقبّل عيني وشفاهي الشاحبة، وتضمّ يدَيَّ المتصلّبتين.

صاح الديك عند الساعة الثالثة فجرًا، إذ بدت له بوادر الصبح مع كوننا لم نزل في الشتاء. ظلّت آيدرس قائمة عندي في أثناء ذلك، تنوح بصمت وتبكي على فقدها للحب الذي كانت تجد مني. تدلى شعرها الأشعث أمام وجهها ولامست خصلاته الطويلة إلى السرير. لاحظت تحرّك خصلة أعقبها اهتزاز شعرها، وكأنّ نفسها ما حرّكه. حدثت نفسها باستحالة الأمر، فلن يستطيع ذلك الجسد التنفّس مجدّدًا أبدًا. تكرّر الأمر ذاته عدة مرات وكانت ردة فعلها ذات الإنكار. إلى أن تأرجحت خصلاتها وظنّت بأنها رأت صدري يتنفّس. كان أول ما داخلها خوف شديد جعل العرق يتصبّب على جبينها. فتحتُ عينيَّ بعض الشيء فتأكّد الأمر لها، أرادت أن تصرخ: «لا يزال حيا!» لكن تشنّجا خنق كلماتها فأطلقت آهة خرَّت معها أرضًا.

كان أدريان في الغرفة، وقد غلبه النعاس بعد طول قيامٍ

علي. أفاق من نومه فرأى أخته ساقطة على الأرض، غارقة في بركة من الدماء السائلة من فمها. فسرت له حركتي الأمر الذي أصابها. فقد كانت الصدمة واختلاط مشاعر الفرح والخوف أكثر مما يطيق جسدها المنهك، بعد شهور من الهم وما حلّ بها مؤخّرا. كانت في خطر أكبر ممّا كنت أنا فيه. فقد أعاد انبثاث الحياة فيّ المرونة إلى أطرافي من جديد. لم يظنّ أحد بأنني سأظلّ على قيد الحياة، فلم يسبق لشخص التعافي بعد أن مسّه ذلك الوباء الضاري. ظنّوا أن عودة العافية لي ما هي إلا خدعة، وترقّبوا عودة انقضاض أعراض المرض بشراسة أكبر إلى أن تهلكني حتما. إلا أن ارتفاع الحمى والألم عني، واستمراري في التحسّن أقنعهم بعد حين بأني شفيت من الطاعون.

كان شفاء آيدرس أمرا عويصا. فحين ألمّ المرض بي كانت خدودها غائرة وجسدها هزيلا. أما الآن، فقد بلغ جسدها مبلغا عظيما من الإرهاق جرّاء القلق الشديد؛ لذا لم تُشفَ ممّا كانت فيه، بل ظلت حيويتها في تناقص مستمر. بدت مروعة بعينيها المشدوهتَين ووجهها المرهق. برزت عظام خدّيها وجبينها وفمها، حتى لتستطيع عدّ عظام جسدها الهزيل. تدلّت يدها الواهنة، وكشف الهزال مفاصلها حتى ليمرّ ضوء الشمس عبرها. كان غريبا أن يظلّ شيء من الحياة في جسدها الذي تمثّل الموت شكلا.

كان أملي الوحيد في بقائها على قيد الحياة هو في انتشالها من بين هذه المناظر المفطرة للقلب، وأخذها في سفر ينسيها

كل ذلك بما فيه من أمور مختلفة تشغلها، وأن أرعى صحتها المتهالكة في البيئة المعتدلة التي سننهي رحلتنا فيها. استأنفتُ الاستعدادات لسفرنا بعدما عقلت لمرضي. لم أبرأ من مرضي إلى نقاهة تثير الشك في عافيتي، بل أسبغت الصحة وفرتها عليّ. كالشجرة في الربيع وهي تحسّ انتشار النسغ في فروعها باثّا الحياة، كذلك تجدّدت الحيوية في جسدي، وسرى الدم في عروقي، وأبدلت لدونة أطرافي المتجددة مزاجي حتى صارت أفكاري أكثر تفاؤلا. صار جسدي الذي كان مثقّلا ويجرّني إلى القبر، وافر الصحة. لم تعد التمارين والرياضة العادية تفي بطاقتي. خيّل إليّ أنني قادر على مجاراة الخيل ركضا، رؤية الأشياء المستترة بالبعد، وسماع دبيب الحياة في الطبيعة الصامتة. صارت حواسي بالغة الإرهاف بعد قيامي من مرضي المميت.

كان الأمل -أيضًا- ممّا أسبغ عليّ من نعم، فآمنت بقوة بأن رعايتي اليقظة ستعيد فتاتي الحبيبة إلى سابق عافيتها. لذا كنت متحمّسًا لإنجاز استعداداتنا. كان يجب أن نغادر لندن في يوم الخامس والعشرين من نوفمبر، وَفق خطتنا الأولى. لذا، وتماشيا مع تلك الخطة، انطلق ثلثا أهل إنجلترا قُدُما، وأمضَوا عدة أسابيع في باريس ينتظروننا. أمسك مرضي ثم مرض آيدرس أدريان ومجموعته المؤلّفة من ثلاثمئة شخص، لذا تأخّر سيرنا إلى أول يناير من عام ٢٠٩٨. كانت رغبتي أن أُبقيَ آيدرس بعيدة عن جلبة الحشد، وأن أخفيَ عنها مناظر

الدمار التي قد تذكّرها بما نحن فيه من بلاء. لذا جعلنا بيننا وبين أدريان، المشغول بأمور العامّة، مسافة كبيرة في السفر. سافرت كونتس وينزر مع ابنها. لم يرافقنا إلا كلارا، وإيفيلن، وامرأة كانت تقوم على خدمتنا. سافرنا في عربة فسيحة قادها خادم لنا، وتقدّمنا مجموعة من عشرين شخصا، على مسافة غير بعيدة، إذ أوكلوا بتجهيز أماكن توقّفنا للراحة ليلا. لقد اُنتخبوا من عدد كبير من المتطوّعين، وكانت كثرتهم نظرًا لما يتمتّع به القائد المعيّن لهم من ألمعية وفطنة.

فرحتُ لما رأيت من تحسّن في صحة آيدرس مباشرة حال ارتحالنا، ورأيت فيه ذلك بشارة طيبة. عادوها ما فقدت من البشاشة والبهجة. صحيح بأن جسدها كان لا يزال واهنا، إلا أنّ التحسّن كان بائنا في صوتها وهيئتها. كان تحسُّنا جليّا للناظر. رسخ شفائي من الطاعون يقينا لديها بعصمتي من ذلك العدو المرعب. قالت لي بأنها على يقين من شفائها، وأن حدسها ينبئها بأن سطوة البلاء الذي عصف بالبشرية آخذة بالانحسار، وأن النجاة ستكتب لبقية البشر، ومعهم أحباب قلبها، وأننا سنمضي حياتنا في هناء في إحدى بقاع الأرض. زادت: «لا يخدعنك ظاهر وهني، فأنا أشعر بتحسّن وبسريان الحياة في جسدي. ينبئني حدسي بأني سأعيش طويلا لأكون جزءًا من هذا العالم. سأطرح العلة التي تضعف عقلي عن جسدي، وأعود إلى سابق عافيتي وتأدية واجباتي. كنت حزينة لفراق وينزر، أمّا الآن، فقد فطمت عن ذلك التعلّق، ورضيت

الارتحال إلى مناخ أكثر اعتدالا، حيث سيكتمل شفائي. ثق يا عزيزي بأني لن أتركك وأخي. سيدفعني إصراري العميق على العيش بجانبك وإسعادك في الحياة إلى البقاء على قيد الحياة، حتى لو أحاقت يد الموت بي».

لم يكن لي يقينها، فلم أصدق أن عودة شيء من الصحة إليها يعني العافية التامّة، ولا أن تكون حمرة خدّيها إعلانا لانتهاء عنائها. بيد أن الخوف من كارثة عاجلة لم يخامرني، بل حدَّثتُ نفسي بأنّ الشفاء التام سيكتب لها، وإن كان آجلا. لذا ظللت الفرحة جمعنا الصغير. تحدثت آيدرس بحماسة طارقة آلاف المواضيع. كانت بغيتها الرئيسة أن تصرف أفكارنا عن الكآبة والحزن. فراحت ترسم صورًا ساحرة لمنعزل هادئ خلّاب، حيث ستسكن عائلتنا الصغيرة، وعن الحب الذي سيغلب على هذا الدمار ويعيد ملأ الأرض بما كان بها من الشعوب من قبل. صرفنا أفكارنا عمّا كنّا فيه من حال، وأشحنا بأبصارنا عن الأرض الموحشة التي عبرنا. عمّ الشتاء بكل كآبته، ووقفت الأشجار العارية جامدة بلا حركة. انتشرت بلورات الصقيع على الأرض محاكية أوراق أشجار الصيف. طغت الحشائش على الطرقات، وشوهت حقول الحنطة المهملة ببقع من الحشائش والأعشاب. تجمّعت الأغنام عند أعتاب الأكواخ، وأطلّ الثور الأقرن برأسه من نافذته. وزاد الشتاء كآبة ريح قاسية تخلّلها عواصف ثلجية ومطر متجمّد.

بلغنا روتشستر، واضطرنا حادث للتأخّر ليوم هناك. وقع

في تلك الأثناء أمر تسبّب في تغيّر خطّتنا، وكان، للأسف، سببًا في تغيير حياتي. فأحالني من نبع البهجة الذي كنت عليه إلى صحراء من الكآبة والحزن. لكن ينبغي لي أن أشرح بعض الأمور قبل أن أذكر سبب تغيّر خطّتنا، وأعود في حديثي إلى تلك الأيام التي كان الإنسـان فيها يطأ الأرض غيرَ راهب من شيء، قبل أن يصير العالم إلى حكم الطاعون.

كان هناك عائلة متواضعة تسكن في أنحاء وينزر، وقد كانت محلَّ اهتمام لنا بسبب أحد أفرادها. عاشت عائلة الكلايتون أيام رغد في السابق. بيدَ أنّ انقلابَ الحال أودى بحياة والدهم مفلسًا، وانعزلت الأمُّ المفجوعة مع أطفالها الخمسة إلى كوخ صغير بين إيتون وسالت هيل. كان أكبر أولئك الأطفال سنًّا فتاة في عمر الثالثة عشرة، إلا أنّ المصائب صقلتها لتكون بذكاء وفطنة البالغين. زاد حال أمّها سوءًا وظلّت لوسي قائمة عليها. كانت أمًّا حانية على إخوتها الصغار، وذات معشر طيّب في حيّها، نبيلة محبة للخير يحبّها الجميع.

إضافة إلى ذلك كانت لوسي بارعة الجمال. لذا، حين بلغت السادسة عشرة، كان من المتوقّع أن يكون المعجبون بها كثرا، على فقرها. كان أحد أولئك المعجبين، ابن راعي أبرشية الريف. كان فتًى كريمًا طيبَ القلب، محبّا للمعرفة وخاليا من الصفات الذميمة. على كون لوسي أميّةً وغيرَ متعلّمة. إلا أنها تعلّمت من أحاديث والدتها وسلوكها شيئًا من الأدب الذي يرقى فوق حياة الفلاحين. أحبّت الشاب حتّى دون أن تعرف

ذلك، وكانت علامات الأمر أنها كانت تقصده للمساعدة كلّما واجهتها صعوبة ما، وأنها كانت تفيق كل أحد منشرحة الصدر لعلمها بأنها ستراه وتصحبه في تريُّفها المسائي مع أخواتها. كان هناك معجب آخر بها، رئيس خدم في إحدى نزل سالت هيل. لم يكن ذلك الفتى خاليا من الخيلاء والادّعاء، خاصة وأنه تعلم من خدّام النبلاء مصطلحات القوم وطريقة حديثهم، فزاده ذلك كبرًا على كبره. لم تصدّه لوسي علانية، فقد كان الحياء مانعها. إنما قاومت بلطف محاولاته الارتباط بها. بان لذلك الشاب أن غريمه قد فُضل عليه. فتحوّل إعجابه بها إلى جنون مثاره الحسد، ورغبة خسيسة في إفشال نجاح غريمه.

لم تكن قصة لوسي المسكينة حالة فريدة. فقد توفّي والد حبيبها، وتركه معدمًا. قَبِلَ عرضًا من أحد النبلاء بالذهاب معه إلى الهند، وكان واثقا من أنه سيجمع سريعا ما يكفي من المال، ويعود ليطلب يد محبوبته. انخرط في الحرب المندلعة هناك وأُسِر، ومضت سنون عديدة قبل أن يصل خبر بحياته إلى موطنه. في تلك الأثناء أصاب لوسي فقرٌ مدقع. فقد احترق كوخها الصغير المحاط بصرائم الجدي والياسمين، وأتت النار على جميع ممتلكات العائلة. مَن لهم؟ كيف للوسي أن تؤمّن منزلا آخر لهم؟ لن تتحمّل أمّها طريحة الفراش ذلك الفقر وجوعه. حينها تقدّم الشاب الآخر مجدِّدا وعرَض الزواج بها. كان قد جمع المال ونوى أن يبنيَ نُزُلًا في دتشت. لم يكن في عرضه أيّ إغراء لها، سوى المأوى الذي سيوفّره لوالدتها.

كانت واثقة من ذلك لما رأت منه من كرم مرافق لعرضه. هكذا وافقت على عَرضه، وضحّت بنفسها في سبيل راحة والدتها.

لم نعرفها إلا بعد سنوات من زواجها. إذ ألجأتنا عاصفة إلى النُّزل، فشهدنا قسوة وسوء طباع زوجها، وصبرها وتحمّلها. لم يكن نصيبُها حسنًا. عاد حبيبها السابق مفعمًا بالأمل ليتّخذها زوجة له، ثم رآها مصادفة ووجد أنها ربّة هذا النُّزل وزوجة لرجل آخر. انسحب يائسًا إلى النواحي النائية، ولم يكن بخير على الإطلاق. عاد إلى العسكرية حيث جرح ومرض ثم عاد إلى موطنه، ومنعت لوسي حتّى من رعايته. زادت قسوة زوجها وحِدّة طباعه لما كان يلاقي في الشغل من توتر. لم ترزق بأطفال لحُسن الحظ، إلا أنّ قلبها كان معلّقا بإخوتها وأخواتها؛ وسرعان ما دفع بخل زوجها وسوء أخلاقه إياهم خارج المنزل. فانساحوا في الأرجاء يجنون خبز يومهم بشقاء. بلغت الخسّة فيه أن لمّح إلى طردِ أمّها من المنزل. إلا أن لوسي أبدت حزما عند ذلك الحدّ، فقد ضحّت بنفسها لأجلها، ونذرت حياتها لها. وإن كان الطرد مصير أمها، فستتبعها لتشحذ الطعام لها وتموت معها؛ إلا أنها لن تتخلّى عنها أبدًا. كان وجود لوسي بالغ الضرورة لسير الأمور في النزل، وخروجها يعني انهيار ترتيب الأمور، لذا لم يكن ليسمح لها بذلك. قَبِلَ ببقاء أمّها، بيدَ أنه كلّما اعتراه غضب أو سكر، كان يخزّ قلب لوسي المسكينة بتعييرها بإحسانه لوالدتها.

كل عاطفة صافية خالصة متبادلة، تحمل سلواها في

ذات نفسها. كانت لوسي مخلصة من أعماق قلبها في تفانيها لوالدتها. همُّها الوحيد في حياتها راحة والدتها وسلامتها. وعلى حزنها لما آلت إليه حالها، إلا أنها لم تنتكس عن زواجها، حتى بعد عودة حبيبها الذي كان على استعداد لإعانتها. مرت ثلاثة أعوام منذ أن احترق كوخهم، كيف كانت والدتها لتبقى على القيد الحياة طوال تلك المدة؟ كانت تلك المرأة النبيلة جديرة بتفاني ابنتها. نشأت بينهما علاقة ثقة وصداقة متينة. كانت الأم متعلّمة مثقّفة، أمّا لوسي، فقد نالت شيئا من المعرفة من حبيبها السابق، وكانت أمها الشخص الوحيد المستوعِب والمقدِّر لها. لذا، وعلى عذابها، لم تكن حياتها خالية من السعادة؛ فلما كانت تدفع كرسي أمّها عبر الطرقات المزهرة في أيام الصيف الرائقة، كان ينير وجهها فرح صافٍ لما كانت تعلم من سعادة أمّها، وأنها المسبّب الوحيد لذلك.

زادت علاقتها سوءا مع زوجها في تلك الأثناء. كان الخراب موشكا ومعه خسرانها لكل ما تعبت من أجله. لكن تغيّرت الأحوال مع مجيء الطاعون. فقد ربح زوجها من تلك الرزية العامة، لكنّها زادت من جموحه أيضًا، فهجر منزله وذهب إلى لندن ليعربد في ملاهيها إلى أن أخذه الموت. أمّا محبوبها السابق، فقد كان أحد أول ضحايا الطاعون. استمرّت لوسي بتكريس نفسها لوالدتها. لم يضعفها شيء سوى خوفها على والدتها من المرض، أو أن يهلكها المرض فلا يقوم أحد على رعاية والدتها.

قبيل رحيلنا عن وينزر، قمنا بزيارة لوسي والتنسيق معها لإجلائها ووالدتها. إلا أن ظروفا ما أجبرت لوسي على ترك قريتها واللجوء إلى قطعة أرض مهجورة، آخذة والدتها معها.

أدى تعاقب الظروف القاهرة علينا، من مرضي ثم مرض آيدرس إلى غيابها عن بالنا. وحين خطرت على أذهاننا علمنا من أحد الرجال القادمين من وينزر بأنها تبلّغنا بأنها وصلت إلى باريس قبلنا. لذا كانت تلك الرسالة المحملة بالألم والمرسلة مع رجل قادم من سلاو مفاجئة لنا حين بلغنا روتشستر. حكى لنا أنه وأثناء سفره من قريته وعبوره في دتشت، فوجئ بدخان من مدخنة النزل، فظن بأنه سيجد من يرافقه في الرحلة، فطرق الباب وأذن له بالدخول. كان النزل خاويا إلا من لوسي وأمّها. كان قد بلغ داء المفاصل مبلغا شديدا من الأمّ حتى صارت تعجز عن استخدام أطرافها. وانسلّ البقية من أهل الريف من حولهم تاركين إياهم وحيدين. توسّلت لوسي للرجل أن يبقى معهم، قائلة بأن والدتها ستتحسن في أسبوع أو اثنين، ثم سيتسنّى لهم السفر معه. أمّا إن تركهم وحيدين مهملَين، فالموت مصيرهم. أجاب الرجل بأن زوجته وأبناءه التحقوا بقوافل المسافرين سلفًا، لذا كان مستحيلا له أن يبقى بحسب رأيه. كان آخر سبيل للوسي أن تعطيه رسالة ليوصلها إلى آيدرس ما أن يراها. أوفى الرجل بذلك الطلب، وتسلّمت آيدرس الرسالة الآتية:

«سيدتي النبيلة،

متأكدة من أنك ستذكرينني وتأسين لحالي، بل وأجسر على الأمل بأنك ستساعدينني، فأي أمل آخر بقي لي؟ اعذري أسلوبي في الكتابة؛ فأنا في حَيرة من أمري. فقد اشتد المرض بوالدتي قبل شهر حتى صارت عاجزة عن استخدام أطرافها. حالها آخذ في التحسُّن الآن، وأثناء شهر سنكون قادرين على السفر وفقا لما تكرمتكم علينا به من ترتيب للسفر. لكن الجميع قد رحل الآن، وكان كل راحل يقول ربنا تتحسن حال والدتي قبل أن نُهجَرَ تمامًا. وقد ذهبت قبل ثلاثة أيام إلى منزل صاموئيل وودز، الذي كان آخر من بقي من الناس، ولما كان ذا عائلة كبيرة ظننت بأنني سأتمكّن من إقناعهم بانتظاري بضعة أيام لأسافر معهم، بيد أني وجدت البيت خاويا حين وصلت إليه. منذ ذلك الحين لم أر إنسانا إلى أن جاء هذا الرجل الطيب. أي مصير سيحلّ بنا؟ لا تعلم والدتي بما يجري لنا، فقد آثرت إخفاء الأمر عنها حتى لا يتفاقم مرضها. ألن ترسلي أحدا لينجدنا؟ أنا على يقين بأن الهلاك سيكون مصيرنا إن تُركنا. إن حركتُ والدتي الآن فستموت على الطريق؛ وإن انتظرت إلى أن تتحسن فلست أدري كيف سأسترشد عبر الطرق مسافرة لأميال لأصل إلى البحر. ثم كيف لي أن أعبر إليكم وقد صرتم جميعا في فرنسا وبيني وبينكم المحيط الذي يخشاه البحارة. فما بالك بي وأنا امرأة لم تر البحر من قبل؟ إن كان السجن في هذه البلاد مصيرنا، بلا ناصر أو معين، فالموت خير لنا حيث نحن. أقوى بصعوبة على الكتابة مع دمعي المدرار. وما بكائي على نفسي، فلو كنت وحيدة لأوكلت أمري إلى الربّ وتصبّرت على ما

سألقى. إنما أسفي على أمي الغالية المسكينة المريضة التي لم تنهرني يومًا قطّ، والتي صبرت على آلام كثيرة في الحياة. اعطفي عليها يا سيدتي العزيزة، وإن لم تفعلي فمصيرها موت بائس. لا يلقي الناس لها بالًا لأنّها مسنّة وعاجزة، ولكن إن كان هذا حالنا وكتبت النجاة لنا، فبأي حق سيطلب الشباب حين يسنون حق الرعاية. سخف مني أن أكتب إليك بهذا الشكل، ولكني حين أراها وهي تحاول كتمان أنينها، والتبسم لي لتهوّن علي مع علمي بما هي فيه من ألم؛ وحين أفكر بجهلها بما يدور حولنا وبأنها ستعرف كل شيء قريبا، وأني سأقف عاجزة وأنا أراها فريسة للجوع والبؤس غير شاكية مما تقاسي، ينفطر قلبي ولا أيَّ شيءٍ أفعل. حفظك الله يا أمي من ذلك المصير، يا من تحملت الكثير لأجلك. أنجديها يا سيدتي، وسيباركك الرب. أما أنا، الكائنة البائسة المسكينة، فسأشكرك وأصلي لأجلك ما حييت.

خادمتك البائسة المطيعة،

الثلاثون من ديسمبر، ٢٠٩٧. لوسي مارتن».

أثرت تلك الرسالة بآيدرس، فطلبت مباشرة أن نعود إلى دتشت لنساعد لوسي ووالدتها. قلت لها بأني سأنطلق إلى هناك بلا تأخير، ولكن رجوتها أن تلتحق والأطفال بأخيها وأن ينتظروني هناك. إلا أن آيدرس كانت مفعمة بالأمل والمعنويات المرتفعة. إذ أعلنت لي بأنها لن تقبل بالفراق وإن كان مؤقتا.

وأضافت بأن السفر بالعربة مريح لها، وأن المسافة التي سنقطع ليست بالطويلة، لذا لا حاجة لأن نفترق. وأنه بإمكاننا أن نرسل إلى أدريان ونبلغه بأننا سنحيد عن خطتنا حينًا من الوقت. تحدّثت بحرارة، وصوّرت لي البهجة التي سنُدخِل في قلب لوسي. أصرت على مرافقتي إن أنا ذهبت إلى هناك، وأنها لن تحبّذ أن نوكل مهمّة نجدتهم إلى قوم آخرين خشية أن يقوموا بذلك بقسوة وعدم رحمة. ختمت بأن لوسي قضت حياتها مثالا للفضيلة والتضحية. لذا حق لها أن تنعم بمكافأة صغيرة، في أن يهب من تبجل وتحترم لنجدتها في وقت حاجتها.

ساقت لي تلك الحجج وغيرها، مقرونة بإصرار رقيق ورغبة ملحّة لفعل الخير، محاولة إقناعي وهي التي كانت أدنى رغباتها أوامرَ مطاعة بالنسبة لي. أمّا أنا، فقد رضيت بما أرادت حالما رأيت رغبتها في القيام بذلك الأمر. أرسلنا نصف مرافقينا إلى أدريان، وانطلقت عربتنا عائدة إلى وينزر، مصحوبة بالنصف الباقي.

أتعجّب الآن لغفلتي وعدم مسؤوليتي لأخاطر بسلامة آيدرس بذلك الشكل. فلو كنت بصيرا للاحظت استفحال المرض، وإن حاول التستر، في توقّد حمرة خدَّيها وازدياد ضعفِها. لكنها قالت لي بأنها في تحسّن، فصدّقتها. إذ كيف للموت أن يدنوَ من كائن يزداد ألقُه ازديادًا مستمرًا ويشعّ جسده، كما ظننت بحمق، بوهج الحياة. مَن منّا لم يلتفت إلى ما مضى بعد وقوع كارثة عظيمة ويتعجّب من غفلته الغريبة،

التي أعمت بصرَه عن رؤية دقائق الخيوط التي ينسج منها الدهر شبكة المصير، إلى أنّ تلفه فلا يقوى خلاصًا منها؟

بدا مفترق الطرق الذي وصلناه أسوء حالًا من أيّ طريق عبرناه، وكأنه يتوعّد جسد آيدرس الواهن بالهلاك. وصلنا إلى هامبتون في اليوم اللاحق، بعدما عبرنا بدارتفود. ازدادت حالة صاحبتي سوءا في أثناء تلك المدة القصيرة، على الرغم من ارتفاع معنوياتها وسخريتها من قلقي باستسخاف مرح. كنت أتساءل أحيانا، عما إذا كانت تحتضر. خاصة عندما أرى يدها الشاحبة الناحلة في يدي، وتأديتها لأمورها اليومية بوهن شديد. كنت أطرد الفكرة وكأنها ضرب من الجنون. إلا أنها كانت تعود مرارا وتكرارا، لتنقشع بما أرى من حيوية روحها.

بعد مغادرتنا لهامتبون، وحوالي منتصف النهار، تكسّرت عربتنا. أدّت الصدمة إلى إغماء آيدرس، لكن بعدما أفقناها لم تظهر عليها أي أعراض للمرض. كان مرافقونا متقدّمين علينا كما اعتادوا، وفارقنا قائد العربة للبحث عن عربة أخرى، بعد أن صارت عربتنا غير صالحة للسفر. لم يكن بالقرب منا سوى قرية قفرة، وجد فيها مقطورة كافية لحمل أربعة أشخاص، إلا أنها كانت خشنة المركب وسيّئة الصنع. بالإضافة إليها وجد عربة ممتازة ذات حصان واحد. اتفقنا على أن تركب آيدرس في العربة الصغيرة وأقودها أنا، بينما يركب الأطفال في العربة الأخرى من السائق. بيد أن تجهيز العربات استغرق وقتا، لذا بدا أننا سنتأخر عن مرافقينا الذين اتفقنا معهم على التوقّف

في وينزر في تلك الليلة؛ ولن يكون من اليسير علينا أن نجد مسكنًا دون القصر. لكن لمَّا كانت المسافة ليست إلا عشرة أميال فقط، قرّرت أن أسبق العربة الأخرى وأصل بآيدرس إلى وينزر، تاركًا الأطفال وسائقهم ليسيروا حسبما تستطيع مقطورتهم البطيئة.

حلّ الليل سريعًا، أسرع ممّا كنت أتوقّع. مع غروب الشمس بدأ الثلج بالهطول بشدة. حاولت بلا جدوى أن أقيَ محبوبتي من العاصفة، إلا أنّ الريح لطمت وجوهنا بالثلج. وتكدّس الثلج بكثافة على الطريق، فلم نتقدّم إلا قليلًا. كانت ظلمة الليل شديدة ولم يبلغ مدى رؤيتنا أكثر من ياردة. لم نر شيئا إلا الأرض المغطّاة بغطاء أبيض. كانت المسافة بيننا وبين العربة الأخرى بعيدة حين أدركت أن العاصفة قد حرّفتني عن مساري الذي أردت. انحرفت أميالا عدة عن الطريق. أعانتني معرفتي في المنطقة على العودة إلى الطريق الصحيح. لكن بدلًا من عبور تقاطع ستانويل ودتشت، أجبرت على أخذ الطريق المؤدّي إلى إغام وبيشوبغيت. فكان يقينا أنني لن ألتقيَ بالعربة الأخرى، ولن أرى كائنًا آخرَ في طريقي إلى أن أصل إلى وينزر.

سقط ساتر النافذة الخلفية، فعلّقت معطفا ليقيَ محبوبتي المتعبة من رشقات الثلج. وضعت رأسها على كتفي، وكان ضعفها في تزايد مستمر. كانت تجيب كلمات تشجيعي بالشكر أول الأمر، ثم ما لبثت أن لفّها الصمت. سكنت حركة يدها،

وكانت علامة حياتها الوحيدة تنفّسها المضطرب وزفراتها بين الحين والآخر. حدّثت نفسي وهلة بأن أقف في ظهر العربة معارضًا العاصفة إلى أن يطلع النهار. إلا أن برودة الريح الشديدة، ارتعاش جسد آيدرس المسكينة، والبرد القارس الذي شعرت به، أنبأتني بخطورة الفكرة. أخيرا، حينما غلبها النوم وظننت في نفسي بأنها غفوة الموت، بان لي خيال كوخ قريب في الأفق القاتم. قلت لها: «تماسكي لحظة يا أعزّ أحبابي، فقد وجدنا ملجأ. لنقف هنا؛ لعلّي أتمكّنَ من فتح باب هذا المنزل المبارك».

بينما كنت أتحدّث إليها، فاض قلبي وحواسي بالشكر والفرح العارم. أسندت رأس آيدرس في العربة وقفزت منها متخبّطًا في الثلج إلى الكوخ الذي كان مفتوح الباب. كان معي من الأدوات ما أتاح لي إشعال ضوء أبان مسكنا مريحا، حوى كومة من الخشب في أحد جوانبه. لم يكن من اضطراب فيه، سوى انفتاح شيء يسير ممّا أدّى إلى غمر عتبته بالثلج. عدت إلى العربة وأعماني التحوّل السريع من النور إلى الظلمة. ما إن استعدت بصري حتى أبصرت الكارثة! يا ربّ هذا العالم الجامح! يا أيّها الموت الأسمى! لن أزعج سطوتك الصامتة، وأفسد قصتي بصرخات الرعب. رأيت رأس آيدرس وقد سقط أسفل العربة. علقت يد في العربة فتمدّد جسدها منها، وتدلّى شعرها الطويل على جانبها. انتابني هلع شديد، رفعتها ولم يكن من نبض فيها، ولم يحرك شفاهها الشاحبة أيّ نَفَس.

حملتها إلى الكوخ ووضعتها على السرير. أشعلت نارا، ورحت أحاول ساعتين طوال أن أعيد الروح التي فارقتها، ولمّا مات في الأمل، أغمضت عينيها الجامدتين بيدين مرتعشتين. لم أكن في حَيرة من أمري فيما يجب فعله الآن. فحين مرضت أوكلت أمر دفن عزيزنا ألفرد إلى جدّته الملكة السابقة، ولكونها لم تزل متعلّقة بالسطلة أمرت بأن يحمل إلى وينزر ليدفن في مقبرة العائلة، في كنيسة القديس جورج. يجب عليّ أن أسرع إلى وينزر لأطمئن كلارا التي تنتظرنا بقلق، وأودّ -أيضًا- أن أكفّها شرَّ النظر إلى جثمان آيدرس الذي سيرافقني. لذا، سأودّع حبيبتي بجانب ابنها في المقبرة أولا، ثم أقصد الأطفال المساكين المنتظرين لي.

أشعلت مصابيح عربتي، لففت جسدها بالفرو ومددتها على الكرسي. ثم أخذت بالزمام ودفعت الخيل قُدُما. انطلقنا عبر الثلج المتكدّس بكثافة على الطريق معيقا لحركتنا، وأعماني هطول الثلج الشديد بعكس اتجاهي. كان في الألم الناجم عن غضب الطبيعة، وعضّ البرد الذي انتهبني واخترق لحمي رحمة لي، فقد ألهاني عن ألم الروح. ترنّحت الخيول في مشيتها والزمام مرخي في يدي. كثيرا ما خطر لي أن أسكن رأسي عند وجه ملاكي البارد، وأستسلم لنوم عميق. إلا أنني لن أترك جسدها نهبًا لسباع الجوّ، بل سأكمل ما بدأت وأرقدها في مقابر آبائها، ولعل الإله الرحيم يرقدني هناك أيضًا.

كان طريق أغام الذي عبرنا مألوفا لي، إلا أن الثلج والرياح

أجبرا الخيل على السير ببطء. فجأة تغيّرت الرياح من جنوبية غربية إلى غربية ثم شمالية غربية. وكما شدّ شمشون واقتلع أعمدة معبد الفلسطينيين، كذلك فعلت العاصفة بتلال الغيم في الأفق. انكشفت الغيوم عن السماء فتجلت النجوم في السماء الصافية، وأمطرت بنورها الثلج فتلألأ. حتى الخيول طربت لهذا التغيّر، فسارت بسرعة أكبر. دخلنا غابة بوّابة الأسقف وعند نهاية الطريق الطويل لاحت لي قلعة وينزر الأبية سامقة بجلال، ومحفوفة بتوائمها من الأبراج. نظرت بتجبيل لذلك البناء العتيق الذي قد يضاهي عمره الصخرة التي قام عليها، مسكن الملوك ومحطّ أنظار الحكماء. نظرت بجلال وحب خالطه الدمع إلى مأوى محبوبتي الأخير، والمكان الذي عشت فيه حبّي مع جسدها الفاني المطروح باردا بجانبي الآن. حق لي في تلك اللحظة لو أنني أسلمت نفسي للحظة وبكيت وتفجعت كالنساء، بينما تطوف بي أشجار المكان وقطعان الأيائل معزية تباعا. كانت البوابة البيضاء مفتوحة على مصراعيها فانطلقت عبر البلدة الخالية مارًّا بالبرج الإقطاعي، إلى أن قامت أبرشية القديس جورج، بجدرانها الداكنة أمامي. توقّفت عند بابها المفتوح، ثم دخلت ووضعت مصباحي المضاء على المذبح. عدت بعد ذلك حاملا آيدرس بحرص شديد ووضعتها بلطف على السجادة التي غطّت الدرج المؤدّي إلى طاولة القربان. علقت شعارات فرسان الرباط على المقاعد كزينة عبثية. كان شعار عائلتها هناك أيضًا، يعلوه التاج الملكي. وداعا لمجد إنجلترا وشعاراتها! صددت عن تفاهات

الخيلاء تلك وتعجّبت كيف كانت البشرية مهتمة في ذلك. انحنيت على جثة محبوبتي ولما نظرت إلى وجهها المكشوف الذي بدأت ملامحه بالتصلّب، شعرت وكأن الروح فارقت الكون بأسره، فصار جمادا لا روح فيه كذلك الجثمان. وهلة، غشيني صراع ومقت شديد لنواميس الكون. إلى أن أسكنني وجه محبوبتي وأعادني إلى العقل، فباشرت تأدية آخر واجب لي عليها. لم أندبها بل شعرت بالغبطة تجاهها، فقد صارت إلى حصانة القبر.

فُتح سرداب المقبرة مؤخرا لدفن ألفرد فيها. تمت مراسم الدفن تلك على نحو سريع، ولم تغلق فتحة السرداب بعدما فتحت. نزلت الدرج ومشيت في ممر طويل إلى التجويف الجامع لأقرباء آيدرس. عرفت كفن طفلي الصغير. على عجالة وبأيد مرتعشة جعلت تابوتا بجانبه، وبطنته بالفرو والشالات الهندية التي لفتت بها آيدرس إلى هنا. أشعلت مصباحا وهاجا ارتعشت ناره في مسكن الموتى الرطب. ثم حملت فقيدتي إلى مأواها الأخير، لففت أطرافها برفق وغطيتها بعباءة حجبت جميع جسدها إلا وجهها الذي لم يزل ناعما بالسكينة. بدت كنائم منهك غطت عيناه في نوم عميق. إلا أن الأمر لم يكن كذلك، بل كانت ميتة... لكم وددت حينها أن أستلقي بجانبها، وأنظر إلى وجهها إلى أن يجمعني الموت بها.

بيد أن الموت لا يأتي طوع البائسين. قمت من مرض مميت مؤخّرًا، ولم يسبق للدم أن تدفق في عروقي بذلك الاعتدال، أو

أن تفعم أطرافي بحيوية كالتي كانت لي الآن. شعرت بأن موتي لن يكون إلا بيدي. لكن أي شيء سأصيب من تقليب ناظري في مسكن الأموات هذا إلا العجز حتى عن ذلك؟ عدت أنظر إلى وجهها وقسماتها الشبيهة بأدريان، فعادت أفكاري إلى الأحياء وإلى ذلك الصديق العزيز، لكلارا وإيفيلين اللذين كانا على الأرجح في وينزر ينتظران عودتنا على أحر من الجمر.

حسبتني سمعت صوت خطو في الأبرشية، ضجّت أصداؤه في فضاء سقفها، وعبر إليّ عن طريق الممر. هل رأت كلارا عربتي وهي تمر بالبلدة فتبعتني إلى هنا؟ يجب أن أجنبها رؤية منظر القبور المريع. انطلقت صاعدا الدرج، ثم رأيت خيال امرأة أحناها الدهر لابسة ثيابَ الحِداد، تمشي متداعية في الأبرشية على اتكائها على عكاز. سمعتني فرفعت رأسها، أنار المصباح الذي كنت أحمل وجهي، وهوى ضوء القمر المكافح للدخول عبر الزجاج الملوّن على وجهها المهيب على تغضنه وهزاله، فعرفت كونتس وينزر. سألت بصوت كئيب: «أين هي الأميرة؟».

أشرت إلى فتحة السرداب. مشت إليها ونظرت إلى ظلمته الحالكة، إلا أن غرفة القبور كانت بائنة لتركي مصباحا صغيرا مشعلا فيها.

قالت: «مشعلك». أعطيتها إياه فبانت الدرجات خطيرة النزول، بالنسبة إلى جسدها. عرضت عليها المساعدة بصمت.

أشارت إلي بالابتعاد بعين ملؤها البغضُ، وقالت بصوت جاف وهي تشير إلى السرداب: «على الأقل سأحظى بها بلا تكدير هناك».

نزلتْ السرداب بتأنّ، بينما ارتميت أنا وقد غلبني بؤس يفوق الكلام والأنين والدموع على الأرض. جسد آيدرس المتصلّب أسفل مني، والكونتس المفجوعة بالموت في أعقابها. كانت تلك نهاية كل شيء بالنسبة لي. يوم أمس كنت مشغولا بالمغامرات القادمة وبالتئام شملي مع أصحابي في الحياة الآخرة. أمّا الآن، فقد بلغت النهاية. كنت على ذلك الحال من انغماس في الكآبة، وإحاطة بجدران العجز، لما أجفلني صوت الخطوات من السرداب، فتذكّرت زائرتي الغاضبة التي نسيت. ارتفع جسدها الطويل ببطء من الفتحة كتمثال حيّ، واكتسى وجهها بالكره والبغض. بدا وكأنها بلغت طرفا من الأبرشية، ثم وقفت جامدة، إلا عينيها اللتين كانتا تبحثان عن أمر ما، إلى أن لمحتني بالقرب منها فوضعت يدها المجعّدة على ذراعي وقالت بنبرة مرتعدة: «ليونيل فيرني، بني!» غرس ذلك الاسم الذي سمعت من والدة ملاكي فيَّ احتراما لم أحمل مثله من قبل لتلك السيدة المزدرية. أحنيت رأسي وقبّلت يدها المرتعشة، ولمّا لاحظت شدة ارتجافها، سندتها إلى نهاية المذبح، حيث جلست على الدرجات المؤدية إلى مقعد المذبح.

سمحَت لنفسها بأن تُقاد، ثم أسندت رأسها على المقعد بينما لم تزل ممسكة بيدي. أنار ضوء القمر المتلوّن بألوان

الزجاج عينيها اللامعتين. أفاقت على ضعفها مستذكرة جلالها، فأسرعت بمسح دموعها. إلا أن دمعها لم يكفّ، فقالت لتبديَ عذرا لنفسها: «لم تزل جميلة وهادئة حتى في موتها. لم تكدر عاطفة صفو وجهها يوما. كيف كنت أعاملها بجرح قلبها الرقيق ببرودة موحشة؟ لم أرحمها في السنين الماضية، أستسامحني الآن؟ لا نفع من حديث التوبة والغفران للموتى، لو راعيت أمنياتها الطيبة مرة في حياتها وكففت طبيعتي القاسية لأجل سعادتها لما شعرت بذلك الآن».

كانت آيدرس وأمها على اختلاف كبير. فقد كان شَعرُ الملكة السابقة الفاحم وعيناها الغائرتان وملامحها البارزة متباينة تماما لخصلات ابنتها الذهبية والجرمان الزرقاوان وملامحها الناعمة. إلا أن المرض في الأيام الفائتة سلب من فتاتي نَضَارتها، فلم يبق منها إلا العظم والجلد. كان هناك بعضٌ من الشبه لأمّها في هيئة عظام وجهها، وذقنها البيضاوي. إلا أنها لم تشابهها في الطباع قطّ، مع طول عيشهما معًا، وذلك أمر يدعو للعجب.

للشبه قوة سحرية. فحين يموت عزيز لنا نرجو أن نراهم في حال طيبة، بل ونتصوّر أن أذهاننا ستسبغ عليه صورا تستر تفسخ جسده. بيد أن تلك أفكار الذهن فقط. إذ نعلم بأن الجسد تحطّم وأن هيئته خربة متحلّلة صائرة إلى غبار من العدم. إلا أن رؤية أيّ حركة أو لمحة شبيهة بما كان الميت عليه تثير في القلب هزة تبلغ كل أركانه. كذلك هزّني شعور غريب، وتجمّدت

أمام تلك الصورة الشبحية، فخضعت لسطوة الشبه التي تجلّت في الشكل والحركات. أخذتني رعدة بين يدي والدة آيدرس القاسية المختالة التي لم أحبب قطّ قبل اليوم.

يا للمرأة الغافلة المسكينة! ظنت من قبل أن كلمة طيبة أو نظرة حانية ستمحوان سنين القسوة الفائتة. إلا أن الأوان قد فات، وما من نفع يرجى من ذلك. هوت على أشواك الحقيقة، وعرفت بأن لا ابتسامة ولا لمسة عطف ستبلغان الميت، أو تسعدان مَن حواه القبر. غمرها الشعور بالإثم مع ما تذكّرت من قسوة خطابها مقابل لين القول، ومقابلتها للنظرات الحانية بعيون غاضبة، وانكشاف زيف ظنها وإيمانها بحق الحكم لمجرد النسب. ففاضت فيها مشاعر عدة وغشيها ارتباك شديد. كان واجبا علي أن أؤدي دوري في تلك اللحظة، وأن أعينها على صد تلك المشاعر الجامحة. تحدثت إليها وذكّرتها كم كانت آيدرس سعيدة، وكيف علت في حياتها لما فيها من شمائل طيبة وخصال حميدة. أثنيت على معبودة قلبي ومثال المرأة الكاملة. طرحت عن قلبي ما يثقله بحرارة وبلاغة سيّالة، وذكّرت بما ينتظرنا في الحياة أثناء تأبيني. ثم عرجت على ذكر أدريان أخيها الحبيب، وابنها الناجي. ذكرت ما كنت أوشكت على نسيانه من واجبات تجاه هؤلاء الأعزاء عليها، ونبّهت الأم النادمة إلى أن خير فعل تجاه الموتى هو أن نضاعف إحساننا تجاه الأحياء. هدأت أحزاني مع تعزيتي لها، وقشع صدق خطابي شعورها بالذنب.

التفتت إليّ، تلك المرأة القاسية العنيدة المضطهدة، التفتت إليّ وقالت: «لو أنّ ملاكنا العزيز رآتنا الآن، لكان سرّها أني عدلت معك ولو متأخّرا. كنت جديرا بها، وأنا سعيدة من أعماق قلبي بأنك أخذتها بعيدا عني. سامحني يا بني عن كل خطأ فعلته بحقّك. أرجو أن تنسى كلماتي القاسية ومعاملتي الفظّة. أنا تحت أمرك، افعل بي ما تشاء».

استغليت تلك اللحظة المناسبة لأقترح مغادرتنا للكنيسة.

قالت: «لنغلق فتحة السرداب أولا».

سألت حين اقتربنا منها: «ألا ينبغي أن نلقي نظرة أخيرة؟».

أجابت: «لست أقوى على ذلك، وأرجو أن لا تفعل. لسنا بحاجة لتعذيب أنفسنا بالنظر إلى الجسد الميت، ما دامت روحها حية في قلوبنا، وما دامت حاضرة معنا في نومنا وصحونا».

انثنينا بصمت كئيب عند المدخل حينًا من الوقت. أقسمت بتكريس حياتي في المستقبل لتخليد ذكراها، وأن أخدم أخاها وابنها إلى أن أموت. قطعت صلاتي لما سمعت نشيج رفيقتي الشديد. سحبت الحجارة إلى المدخل، وأغلقت التجويف الضام لروحي. ثم أسندت رفيقة عزائي العاجزة، وانسللنا ببطء من الأبرشية. شعرت لما وطأت الخارج وكأني غادرت عش هناء إلى قفر مريع، أسير فيه على درب من الآلام في حج لا طائل منه ولا مسرة.

الفصل الرابع

أمر مرافقونا بإعداد مسكن لنا لك الليلة في نزل مقابل للقلعة. لم نتكمن من زيارة ردهات قلعتنا وغرفها ولو لمجرد الزيارة. ودّعنا إلى الأبد طرقات غابات وينزر وجنباتها، أزهارها وجداولها الثرثارة التي صاغت حبّنا الشديد لتلك البقعة، وتعلّقنا الفائق تجاه إنجلترا. كانت نيتنا أن نذهب إلى منزل لوسي في دتشت أولا، لنطمئنها ونبشّرها بالعون، قبل أن نذهب إلى نزلنا في الليل. بينما كنت والكونتس منحدرين من تلٍّ مؤدٍّ إلى القلعة، رأينا الأطفال وقد توقّفوا توًّا بمقطورتهم عند باب النزل. مرّوا بدتشت بلا توقّف. خشيت أن أقابلهم وأكون ناقلا الخبرَ المريع لهم، لذا وبينما كانوا منشغلين بوصولهم غادرتهم فجأة، مسرعًا عبر الطريق المثلج المألوف إلى دتشت ومستعينا بضوء القمر.

كان مألوفا فعلا. كل كوخ قائم في مكانه وكل شجرة حملت صورة مألوفة لي. نقشت العادة بغير إرادة مني كل انحناءة وملمح في الطريق. بعد مسافة قصيرة من الحديقة الصغيرة كانت هناك شجرة دردار محطّمة جرّاء عاصفة قبل عشر سنوات. لم تزل هناك بجذعها العاري وأغصانها المثقلة بالثلج التي أخرسها الصقيع عن الحفيف. ذلك الدرج وتلك البوابة البيضاء، وجذع السنديان الأجوف المجانب لغدير صغير الذي

كان حتما منتميا إلى الغابة قبلا، والذي اخترق ضوء القمر شقوقه الآن، والشبيه للإنسان عند الغروب لذا أسماه الأطفال فالستاف؛ كل تلك الأشياء كانت مألوفة لي كإلفي منزلي الذي هجرت. كذلك كل حائط وكل بستان، يراهما الغريب بعينه كتوأمين، إلا أن عيني الخبيرة تعرف كل منها بصفاته المميزة واسمه. ظلت إنجلترا باقية، إلا أنها كانت ميتة. وما كنت أبصر إلا شبح إنجلترا السعيدة، التي مر من تحت أشجارها أجيال من اللاهين بأمن وأمان. زاد على ألم رؤية ما ألفت شعور يعرفه الجميع ولكن أحدًا لا يفهمه. شعرت وكأنني قد رأيت كل ذلك من قبل، في رؤيا ليست كالمنام. شعرت بأن هذه اللحظة مرت من قبل وأنّي شعرت فيها بمثّل شعوري هذا، وكأني واقف بين مرآتين متقابلتين. أردت التخلّص من ذلك الشعور، لذا حاولت أن أتخيّل صورًا أخرى في هذه البقعة الهادئة. لكن ذلك زاد من سوء الحال بسبب صبي لتفكيري على الأشياء المألوفة من حولي، التي كانت سببا في ألمي.

بلغت مسكن لوسي المتواضع في دتشت. ذلك المسكن الذي كان يوما يضجّ بالمسافرين، والذي كان بالغ النظافة والترتيب في أيام الأحد شاهدًا على حسن صنيع ربته. كان الثلج كثيفًا وعاليا عند الباب، وكأنه لم يفتح منذ عدة أيام.

حدّثت نفسي قائلا: «أي مشهد سيؤوي الموت الآن؟». قلّبت نظري في الجدار المظلم، وحسبت أنني رأيت ضوءًا من إحدى نوافذه، إلا أن ذلك لم يكن سوى انعكاس لضوء القمر.

لم يكن من صوت في الأرجاء إلا صوت أزيز الأغصان التي طرحت الريح عنها الثلج الذي يثقلها. سبح القمر عاليا غير مكدر بالغيوم في السماء الرائقة الممتدة، بينما انتشرت ظلال المنزل القاتمة على الغابة من خلفه. دخلت من بوابة صغيرة في السور وتفحّصت كل نافذة بقلق. أخيرًا، رأيت بصيصًا من نور يكافح للخروج من إحدى نوافذ الغرف العليا. كان شعورا، مما يؤسف عليه، غير مألوف، أن ينظر المرء في أحد المنازل فيرى فيها ساكنا كما في السابق. لم يكن الباب مغلقا إلا بمزلاج فقط، لذا دخلت سريعا وصعدت الدرج المضاء بنور القمر. كان باب الغرفة المأهولة نصف مفتوح. نظرت بداخل الغرفة فرأيت لوسي جالسة على الطاولة التي تحمل النور وكأنها في عمل. كانت أدوات الحياكة بجانبها إلا أن يديها في حجرها وعينيها تنظران إلى الأرض بثبات. بدا في فراغ نظرتها أنها غارقة في التفكير. أثر فيها الهمّ والمشاق ففقدت جمالها السابق. إلا أن ثوبها المتواضع وحالها الكئيب والشمعة المفردة المضاءة التي أنارتها، صنعا مشهدًا آسرًا للأنظار. أيقظني واقع مخيف من تلك اللحظة، فقد كانت هناك جسد ممدّد على السرير ومغطّى بشرشف. ماتت أمها وقامت لوسي على الجثّة، بعد أن هجرها العالم بأسره، وحيدة طوال الليل المنهك. دخلت الغرفة فأثار ظهوري غير المتوقّع صرخة من الناجية الوحيدة في أرض الموتى. لكنها ميّزتني فتمالكت نفسها على نحو سريع. «ألم تتوقّعي حضوري؟» سألت بصوت خفيض مثاره حضور الموت في الغرفة.

أجابت: «أنت بالغ الطيبة لتأتي بنفسك، لن أستطيع شكرك كفاية أبدًا. إلا أنّ الأوان قد فات».

صحت: «فات الأوان! ماذا تعنين؟ لم يفت الأوان على إجلائك من هذا المكان الخرب، وإيصالك إلى...».

أجبرني مصابي الذي كنت نسيت أثناء حديثي على الالتفات عنها مخنوقا بعبرات قطعت كلامي. فتحت النافذة ووقفت أنظر إلى المحاق المتضائل في العلياء، والأرض البيضاء القارسة في الأسفل. هل سبحت روح آيدرس العزيزة مجاورة القمر في السماء المتلألئة؟ لا لا! كانت جديرة بمناخ أجمل ومسكن ألطف من ذلك!

سرحت في ذلك الخاطر حينًا من الوقت، ثم خاطبت النائحة التي وقفت مستندة إلى السرير وقد سيطر عليها الاستسلام لليأس والقنوط، وكأنها عليلة بهما. كان منظرها أشد تأثيرا من نوبات الهذيان أو النحيب. حاولت أن أهوّن عليها وأبدّل مزاجها إلا أنها رفضت ذلك. أولئك الذين لم تألف عقولهم كثيرا من الناس خارج دائرتهم الضيّقة، معرضون لأن تنصب أفكارهم على ما يدمّرهم في حال مصاب عزيز عليهم. فعدم قدرتهم على استيعاب المصاب يدعوهم إلى التعلّق بشدة بمن فقدوا. كذلك كانت لوسي، فقد كانت وحيدة في إنجلترا المقفرة، ومع ذلك أرادت أن تقيم مراسم الدفن، كما جرت العادة في الأرياف حين كان الموت ضيفا نادرا

يمنحنا الوقت لابتلاع الصدمة بالجنائز والمراسم، ولنحمل الميت إليه ونسلم مفاتيحه للموت. كانت قد أتمت بعضا من ذلك سلفا، وما كانت تصنع عندما أبصرتها إلا كفنا لوالدتها. شعرت بالغثيان من تفاصيل ذلك الويل الذي تقوى النساء على تحمله، ويعجز الرجال عنه. فأهون عليهم أن يصارعوا الموت على أن يجابهوا ذلك الحزن الذي لا تصفه الكلمات.

قلت لها بأنه لا ينبغي للحزن أن يبتلعها، ولأشعرها بأني عارف بما تقاسي أطلعتها على رزيتي. ثم اقترحت عليها أن تأتي معي لتعتني بالأطفال الأيتام الذي حرمهم الموت من عناية أمهم. لم ترفض لوسي تقديم المساعدة يوما لذا وافقت. أغلقت النوافذ والأبواب بحرص ورافقتني إلى وينزر. أثناء مسيرنا إلى هناك قصت علي نبأ وفاة والدتها. كانت والدتها قد علمت بالفاقة التي هم عليها، إما لوقوع يدها على رسالتها التي كتبت لآيدرس، أو لأنها سمعت حديثها مع الرسول. لم يحتمل جسدها الطاعن في السنّ شدة القلق والخوف. أخفت عن ابنتها معرفتها وراحت تفكّر بالأمر نهارا وليلا، حتى أتت عليها طلائع الموت من الحمّى والهذيان فانكشف ما كانت تخفي. أسلم جسدها روحها التي طالما كانت على شفير الموت، بعدما تكالب عليها المرض والقلق، فماتت في صباح ذلك اليوم.

بعد ذلك اليوم العصيب، سرّني أن أرى أصحابي وقد خلدوا إلى الراحة لما وصلت إلى النزل. أوكلت إلى لوسي

العناية بالكونتس، وذهبت أطلب الراحة ممّا فيَّ من الحزن والندم. سرت أحداث اليوم المأساوي في عقلي للحظات إلى أن أسبغ علي النوم نعمته. استيقظت مع انبلاج الفجر، أحسست بأن سباتي ظلّ سنوات.

لم ينعم رفاقي بمثل الراحة التي نلت. إذ أبدى انتفاخ عيني كلارا أنها قضت ليلتها في البكاء. وبدت الكونتس منهكة وشاحبة. لم تجد روحها العتيدة راحة في الدموع، فعانت من الذكريات والندم الذي تآكل روحها. غادرنا وينزر مباشرة بعد أن أتممنا مراسم الدفن لوالدة لوسي. قررنا الاتجاه مباشرة إلى دوفر، رغبة في الرحيل عن هذه المناظر الكئيبة. انطلق مرافقونا للبحث عن الخيول التي وجدوا محمية غريزيا في الحظائر الدافئة، أو مرتجفة في الحقول الكالحة ومستعدة للتخلي عن حريتها في مقابل العلف.

أثناء ارتحالنا قصّت الكونتس عليّ الأحداث الغريبة التي ساقتها إلى لقائي في أبرشية القديس جورج. أثناء آخر لقاء بينها وبين آيدرس راعها ما رأت من نحول جسدها وشحوب وجهها، فنمى فيها فجأة خوف من أنها لن تر ابنتها مرة أخرى. لم تقوَ على ترك ابنتها وقد تملكها ذلك الخوف، لذا حاولت جاهدة ولمرة أخيرة أن تقنع ابنتها بأن تسلم نفسها إلى رعايتها، لتطلقني للانضمام إلى أدريان. رفضت آيدرس بلطف وكان ذلك الوداع بينهما. كبر في صدر الكونتس ذلك الخوف من أنها لن تر ابنتها مجدّدا وصار لا يفارقها. حدثت نفسها ألف

مرة بأن تلتحق بمجموعتنا، إلا أن كبرياءها وسخطها ألجماها عن ذلك. ولما كانت ذات طبيعة مكابرة وكان الخوف يكبر عن احتمالها، كانت تقضي النهار في عصبية وتوتر متحرية نبأ ابنتها، وتبلل وسادتها بالدمع ليلا. اعترفت بأن بغضها لي في تلك الأثناء كان لا يعرف حدًّا، إذ رأت فيّ العقبة الوحيدة المانعة لتحقيق أعز أمنياتها، ألا وهي القيام على رعاية ابنتها المحتضرة. أرادت أن تبوح بما يعتمل في صدرها من خوف لابنها، علها تستمد منه رأيا أو تكذيبا لتكهنها.

في اليوم الأول لوصولهم دوفر مشت معه على الشاطئ وراحت تحدّثه على استحياء، إلى أن بلغت من الجرأة ما أعانها على الإفصاح بمخاوفها. في تلك الأثناء بلغهم رسولنا حاملا رسالتنا التي أبلغتهم بأننا عائدون مؤقّتا إلى ونزر. ذكر لهم حالنا الذي تركنا عليه شفهيا، وأضاف بأنه على بهجة وارتفاع معنويات السيدة آيدرس، إلا أنه لم يظن بأنها ستبلغ وينزر حية. قالت الكونتس: «خوفك في محلّه، فهي موشكة على الموت».

كانت تحدق إلى فجوة صخرية في الجرف أثناء حديثها، وفيه رأت كما أخبرتني بحزن بالغ خيال آيدرس وهو يلج الكهف ببطء. كان ظهرها إلى والدتها ورأسها مطأطأ، مرتدية ثوبها الأبيض المعتاد إلا أن حجابا شفافا غطى شعرها الذهبي، فكانت كجوهرة محتجبة بسديم. بدت مكتئبة وخاضعة لقوة قاهرة. دخلت الكهف طائعة وغابت في ظلمته الحالكة.

قالت السيدة الجليلة مستمرة في قصّ ما جرى: «أكان ما رأيت ضربًا من الرؤى؟ قد يساروني الشكّ في بصري أو قد أكذّب صدق نفسي، لكن لم أشك قط في أن ما رأيت كان حقا. منذ ذلك الحين فارقني الهدوء. كنت على استعداد لبذل عمري مقابل رؤيتها قبل موتها. علمت أني لست ببالغة إياها، إلا أنني عزمت المحاولة. انطلقت إلى وينزر فورًا. وعلى ما أكّد لي من أننا في سفر سريع، بدا سيرنا لي كسير الحلزون، وخلت أن التأخير متعمد فقط لإزعاجي. كنتَ المتهم في نظري، فكلتُ على رأسك تهما مثارها انقطاع صبري. لم أشعر بخيبة الأمل بل بوخز الألم حين أشرت إلى قبرها. لا تصف الكلمات كم الحقد الذي شعرت حينها تجاهك، ونشوة انتصاري بانفصالها عنك. إلا أن الغضب والظلم ماتا في نعشها لما رأيتها، وحل الندم محلهما (رحماك يا ربي ممّا أشعر!) وأحسبه لن يفارقني ما حييت».

لأهوّن الخطب، وأمنع ما نمى فيها من حب ولطف من سقاية ما خلف الحقد والقسوة، كرّست نفسي لمحاولة التخفيف عن تلك السيدة الجليلة المتعبة. كان جمعنا جمعا كئيبا، تملَّكَ كل من فيه حزن شديد. فضلا عن غشاوة المستقبل الذي لا ندري أي شيء يحمل لنا. يمرّ العقل بمرحلة من التذبذب قبل إنجاز أي أمر عظيم. فتارة تجده مهدئا لنفسه بتوقّعات طيبة، وتارة ينكص على عقبيه بعدما يبصر عقبة مريعة لم تكن في الحساب. سرت في رعدة قاهرة حين خطر في بالي أننا سنعبر

الحاجز المائي غدا، لنبدأ رحلتنا اليائسة الطويلة. إلا أن جأشي عاد هادئا بعد هنيهة حين تذكّرت بأن ذلك هو الحل الوحيد المتاح.

علمنا ببلوغنا لدوفر من أصوات هدير بحر الشتاء. إذ حملت الرياح صخب البحر لأميال في البر، وأثار علو صوته غير المعتاد فينا شعورا بالخطر وانعدام الأمان. لم نسمح لأنفسنا أول الأمر بأن نظن أن خللا ما أصاب الطبيعة، فحمل البحر والهواء على القتال. بل خيَّلنا لأنفسنا ألفة الأصوات التي نسمع، وكأننا سمعناها ألف مرة من قبل ونحن نشاهد الأمواج المحمّلة بالزبد تسوقها الرياح للموت على الرمال المقفرة والصخور الحادة.

لكن لما اقتربنا، بان لنا أن دوفر غارقة. غمرت المياه الفائضة من الحبر كثيرا من المنازل، وكانت تنحسر عنها أحيانا تاركة شوارعها عارية، لتعود سريعا بعد ذلك جامحة هادرة.

لم يكن حال حشد البشر أقل حدة من الكون العاصف وهم يقفون فوق الجرف لمراقبة بطش العاصفة. كان الجوُّ يوم وصول مجموعة أدريان من النازحين رائقا. حيث كان البحر صافيا كالمرآة وتلألأ ضوء الشمس بسحر على أمواجه اللطيفة ناشرا ألقه فوق وجه البحر الرائق. استبشر الناس بهذا الهدوء كفأل حسن للعبور، وانطلق المسؤول عن العبور إلى المرفأ لتحفص سفينتين بخاريتين كانتا ترسوان هناك. في منتصف

الليل وبعد أن هجع الناس هبّت عاصفة هوجاء مصحوبة بوابل من المطر والبرد. وما لبث الناس أن سمعوا النذير وهو يصيح في الشوارع أن استيقظوا إن لم تشاؤوا الغرق. وما إن خرجوا بما عليهم من الملابس، حتّى تبيّن لهم صدق التحذير، فقد ارتفع المد على كل العلامات، بل وبلغ شوارع المدينة. صعدوا الجرف، إلا أنّ الظلام لم يتح لهم رؤية شيء من الأمواج إلا الزبد الأبيض عليها، بينما اختلط صفير الرياح العاصفة بصخب الأمواج الكاسحة. كانت ساعة الليل المتأخرة، ورؤية كثير من الناس للبحر أول مرة، وعويل النساء وبكاء الأطفال أمورًا زادت من شدة الاضطراب. استمرّ الحال على ذلك طوال اليوم اللاحق. جفّت المدينة بعدما انحسر الماء عنها. لكنّ مستوى المد بلغ ارتفاعا أشد مما كان في ليلته الأولى. فترك الأفلاك الضخمة مطروحة في الشوارع بعدما اجتث مراسيها من أرضها. أمّا السفن الأخرى، فقد كدّسها أسفل الجرف؛ فكانت كالطحالب لفظَها البحر. أدّى ارتطام الأمواج الشديد بجدار الجرف إلا اختلال بعضه، ورأى الجمع المرتاع بعضا منه يخر في البحر. كان لتلك المشاهد أثر مختلف على الناس. فقد ظنّ معظمهم أنّ ذلك عقاب من الإله على تركهم وطنَهم. بينما زاد ذلك رغبة الكثيرين في ترك هذه الأرض التي صارت سجنا لهم، والتي ظهر لهم بأنها عاجزة حتى عن ردّ عدوان الأمواج عليها.

أردنا النوم حين وصلنا إلى دوفر، بعد عناء رحلة يوم

طويل. بيدَ أنّ الحدث من حولنا سرعان ما قشع تلك الفكرة. انجذبنا إلى الحشد الكبير أعلى الجرف؛ لنستمع إليهم ونعرف ما يجري. هبط ضباب لفَّ السماء والبحر بحجاب من سديم، وقلّل مدى رؤيتنا إلى ربع الميل. زاد من قلقنا أن ثلثي عددنا الأصلي كانوا في انتظارنا في باريس، فخشينا أن نعجز عن الالتحاق بهم بسبب هيجان ذلك البحر الفاصل بيننا. أخيرًا، وبعد أن قضينا ساعات فوق الجرف التجأنا إلى قلعة دوفر التي جمعت تحت سقفها جميع الأحياء في إنجلترا. حاولنا النوم علّنا نجد في ذلك تجديدا لبأسنا الخائر وعزيمتنا الواهنة.

في الصباح الباكر، زفّ أدريان لي أخبارًا طيّبة عن تغيّر اتجاه الرياح. فبعدما كانت جنوبية غربية صارت شمالية شرقية. عرّيت السماء من غيومها بفعل الرياح، بينما انحسر المدّ عن المدينة بالكامل. زاد تغيّر اتجاه الرياح من هيجان البحر، إلا أنّها غيّرت صبغته في وقت الغروب إلى اللون الأخضر الفاقع. وعلى صخبه العالي، كان منظره ذاك مثيرًا للأمل والبهجة. طوال النهار كنا نراقب رؤوس الأمواج العالية وهي تعلو، وقبيل الغروب دفعتنا رغبة في رؤية الشمس وهي تغرب إلى التجمّع في بقعة واحدة عند حافّة الجرف. حين اقترب الجرم العظيم المضيء من حدّ شفير الأفق العاصف، حدث أمر عجيب بشكل مفاجئ! إذ ظهرت ثلاث شموس بمثل ألق ونور شمسنا، وانطلقت من ثلاث زوايا مختلفة في السماء نحو الشمس ثم راحت تدور حولها. كان الوهج شديدا

على أعيننا المبهورة. بدا أن الشمس ذاتها راحت ترقص معهم، بينما اشتعل البحر كالبركان، كأنه فيزوف يفيض حممًا. فضت الخيول مرابطها هلعًا، وانطلق قطيع مذعور من المواشي إلى الجرف، ولمّا أعماهم الضوء، انكبّوا صارخين برعب في الأمواج بالأسفل. لم يدم ظهور تلك الأجرام طويلا، إذ اتحدت تلك الشموس الكاذبة في بدن واحد ثم انغمست في البحر. بعد عدة لحظات، بلغنا صوت شديد الجلجلة يصمّ الآذان من المكان الذي اختفت فيه تلك الأجرام.

انحدرت الشمس أثناء ذلك، بعدما تخلّصت من تلك الأجسام الغريبة، بجلالها المعتاد نحو مهجعها الغربي. ثم حدث ما لم نجرؤ على تصديق رؤيته، إلا أنه بدا كذلك. إذ ارتفع البحر ليبتلع الشمس. ظلّ في ارتفاع إلى أن غاب الفلك المشتعل خلف جدار الماء، ولم يتوقّف ارتفاع البحر. بدا لنا وأنّ الأرض تخلّت عن نواميسها وأنّ قوانين الطبيعة لم تعد تحكّمنا. صاح كثيرون قائلين بأنّ الأجرام الغريبة لم تكن إلا نيازك من نار أشعلت الأرض، فتسبّبت في غليان هذا المرجل العظيم وارتفاع أمواجه. جزموا بأنّ يوم القيامة قد حلّ، وأننا على وشك المثول بين يدي الخالق الجبار. بينما فسّر آخرون ممّن لم يتملّكهم الرعب تلك الظاهرة بأنها نتيجة لتصادم الرياح مختلفة الاتجاه. احتجّوا لرأيهم ذاك بأنّ الريح الشرقية كفّت عن الهبوب، بينما ظلّت الريح الغربية نشطة في الأفق البعيد، ودليل ذلك تلك الموجة العاتية المسرعة. هل سيتحمّل

الجرف تلك الضربة؟ أوَ ليست الموجة العملاقة أعلى من حافّة الجرف؟ ألن يغشى طوفانها جزيرتنا الصغرة؟ فرّ حشد المشاهدين. انتشروا في الحقول هاربين، يتوقّفون بين الحين والآخر للنظر إلى الخلف. اعتراني شعور عظيم بالدهشة فأهدأ خفقان قلبي. انتظرت قدوم موجة الدمار باستسلام رزين غريزي. كان منظر المحيط يزداد رعبا مع مرور كل لحظة، بينما أظلم الغسق من موجة الخراب التي نشرتها رياح الغرب على امتداد السماء. لكن تدريجيا ومع تقدّم الموجة اكتسبت منظرًا أكثر هدوءًا. فانخفض ارتفاعها تدريجيا، إما بفعل عائق في البحر أو رياح كابحة قلّلت من حدّتها. أزال ذلك التغيّر خوف بعضنا من الهلاك الموشك، إلا أننا لم نزل نترقب النتيجة النهائية. ظلّلنا نراقب جموح البحر ومرّ السحاب الذي تسابقت النجوم بين فراغاته طوال الليل. وحرمنا هدير الطبيعة من القدرة على النوم.

استمرّ ذلك الحال لثلاثة أيام بلا انقطاع. جبنت أشجع القلوب أمام توحّش الطبيعة الضارية. بدأت أقواتنا بالنفاد، على إرسالنا مجاميع للبحث عن الطعام في البلدات المجاورة بشكل يومي. حاولنا بلا طائل أن نجتمع على الإيمان بأن لا شيء ممّا يحدث خارج عن حدود المألوف؛ إلا أنّ مصيرنا المحفوف بالكوارث أحال أفضل الرجال بيننا إلى جبناء. ظل الموت يطاردنا شهورًا عديدة، ولم ينفكّ عنا حتى في تلك المرحلة الزمنية القصيرة التي يغيب فيها عادة. وتعلق لنا راكبًا

للعواصف فوق ذلك البحر الهائج الفاصل بيننا وبين النجاة.

فكنا كشاطئ شمالي عارٍ

تصفقه أمواج بحر الشتاء

أو العواصف وما أعتى منها من الهواء

وبينما تعوي رياح الغرب بغضب

أو تهب هادرة من جبال الشرق عجلا

ترنّح رمال ذلك الشاطئ ثملا.

استدعى الأمر طاقة تفوق احتمال البشر لتحمل وعيد الدمار الذي أحاط بنا من كل جانب.

بعد مرور ثلاثة أيام تلاشت حدة الرياح وحلقت النوارس في كبد السماء الساكنة، وتعلقت آخر ورقة سنديان بأعلى الفروع بلا حركة. كفّ البحر عن الزمجرة بغضب، وحلّ مكان ذلك بضع موجات ليدي بها جبينا مقطبا. مع ذلك استلهمنا شيئا من الأمل من ذلك التغيّر، ولم نشك بأن البحر سيكون إلى صفائه بعد أيام عدة. أيدت شمس اليوم الرابع ظنّنا ذاك، فقد كانت صافية ذهبية اللون. أثناء نظرنا إلى البحر البنفسجي المشرق أسفل منا لفت انتباهنا شيء غريب. شيء أسود استبان لنا بعد قربه أنه قارب، يغيب حينا ويبدو حينا آخر بين الأمواج العالية. تتبعنا حركته باستغراب وحماسة، ولمّا ظهر لنا أنه

متّجه إلى الشاطئ حتما، نزلنا إلى المكان الوحيد المناسب للرسوّ، ورفعنا لهم علامة لإرشادهم. ميّزنا طاقمه بالاستعانة بالمناظير. كانوا تسعة رجال من الإنجليز، ممّن سبقونا إلى باريس قبل عدة أسابيع. استقبلناهم بأذرع ممدودة وصدور مرحّبة، إذ كنا في شوق لرؤية بني جلدتنا الذين جاؤوا من بلاد أخرى. كانوا بطيئين في رد التحية لنا. بدا عليهم السخط والغضب. فكانوا كالبحر الذي ركبوا مخاطرين بحياتهم، إلا أن ضيقهم كان من بعضهم البعض. كان من الغريب رؤية أولئك الناس الذين ظهروا فجأة كزرع نادر أنبتته الأرض، وهم مشحونون بالغضب. كان أول ما طلبوا أن يُؤخذوا إلى رئيس إنجلترا، كما سمو أدريان؛ على تخلّيه عن ذلك اللقب الفارغ، الذي لم يعد له أيّ معنى مع زوال إنجلترا. أُخذوا سريعا إلى قلعة دوفر، حيث كان يراقب أدريان حركة قاربهم من حصنها. استقبلهم باهتمام وتساؤل عن سبب هذه الزيارة الغريبة. لم نفهم سر هذه الزيارة إلا بعد حين بسبب الفوضى التي صاحبت صراعهم على التحدث أولا. تبين لنا تدريجيا من خطاب ذاك الغاضب ومقاطعة آخر له وسخرية الثالث أنهم كانوا مبعوثين من أصحابنا في باريس. حيث انقسم القوم إلى ثلاث جماعات تحاول كل منها فرض سيطرتها على المجموعتين الأخريين. أرسل هؤلاء المبعوثون إلى أدريان الذي اختير ليكون حكما. سافروا من باريس إلى كالية عابرين البلدات والريف الخرب، ومزجين سفرهم ذاك بكره مرير بعضهم لبعض. وها هم الآن يحاجون بعضم بغير لين.

بعد الاستفسار من كل فريق على حدة، وبعد طول تحقيق تبينت لنا حقيقة الأمر في باريس. منذ أن انتخبه البرلمان خليفة لرايلاند خضع جميع الإنجليز الناجين لأدريان. كان حادي رحلتنا من أرضنا الأم إلى الأراضي المجهولة ومشرعنا وحامينا. لم يكن الانفصال الطويل بين مجاميعنا من ضمن خطة نزوحنا الأولى، وكان هرم القيادة ينتهي عند قمته إلى إيرل وينزر أدريان. بيد أن ظروفا قاهرة أدت إلى تغير الخطة، وتسببت في انفصال القسم الأكبر منا لما يقارب الشهرين عن قائدهم. كان سفر المجموعتين الأوليين منفصلا وفي طريقين مختلفين، وما إن بلغوا باريس حتى دبّ الشقاق بينهم.

وجدوا أن باريس مقفرة. حين بدأ أمر بالطاعون بالظهور، كانت أخبار القارة وفتك الطاعون تردنا مع المسافرين والتجار. لكن مع ازدياد الوفيات قلت الأخبار إلى أن انقطعت بالكامل. حتى في إنجلترا، بات التواصل بين أركان الجزيرة أمرًا نادرًا. لم تبحر أي سفينة في القناة الفاصلة بين دوفر وكالية. وإن غلب الحزن واللهفة شخصا على معرفة أخبار أهله في الوطن، وركب قاربا للعودة إلى إلينا، ابتلع البحر الجائع قاربه أو أصابه الطاعون بعد يوم أو اثنين من إبحاره ليموت قبل ينقل إلينا أخبار فرنسا المدمرة. لذا كنا على قدر كبير من الجهل بحال الأمور في القارة، وكان فينا شيء من الأمل بأن نجد أعدادا كبيرة من الناس في أنحائها الشاسعة. بيد أن ما فتك بأهل إنجلترا كان أشد فتكا بجارتنا. فقد كانت فرنسا خالية، وعلى

طول الخطّ بين كالية وباريس لم يكن المرء ليرى إنسانا واحدا. أمّا في باريس، فقد كان العدد قليلا يناهز المئة، ممن استسلموا لمصيرهم القادم، وراحوا يجوبون شوارع العاصمة ليجتمعوا ويتذاكروا الأيام الماضية، بحيوية وبهجة قلما فارقت أبناء ذلك الشعب.

امتلك الإنجليز المدينة بلا منازع. فقد كانت منازلها الفخمة وشوارعها الضيقة خاوية من الحياة. لم يُر إلا عدد من الأشخاص الشاحبين في قصر التويليري. تساءلوا مستغربين عن سبب مجيء أهل الجزيرة إلى مدينتهم المنكوبة. فقد ظنّوا لشدة ما قاسوا من عذاب وبؤس أنهم كانوا الأسوأ حالا؛ وقالوا بأنهم كانوا على استعداد لاستبدال ما هم فيه بأي بلد آخر حل به الطاعون. استمعوا إلى قصص النازحين وأسباب تركهم لبلدهم، فقالوا بشهقة ممزوجة بالازدراء: «عودوا إلى جزيرتكم المحاطة بالماء ونسيم البحر. ففي انفصالكم عن القارة شيء من الأمل بالنجاة. فإن كان الطاعون قتلكم بالمئات، فقد قتلنا بالآلاف. أولستم الآن أكثر عددا منا؟ لو جئتم قبل عام لوجدتم المرضى يدفنون الموتى. إلا أن حالنا أفضل الآن، فقد خفت وطأة الموت وما نحن إلا قلة تنتظر طعنة الموت الأخيرة. لكن أنتم يا من لستم تقنعون بالموت، لا تتنفسوا هواء فرنسا وإلا، فستصيرون أسفل ترابها قريبا».

كذلك أفهموا أصحابنا بأنهم كالمستجير من الرمضاء بالنار. بيد أن الخطر الذي ترك أبناء بلادي خلفهم كان وشيك

الفتك بهم، والذي هم مقبلون عليه بعيد الوصول. سرعان ما بددت مشاعر أخرى مشاعر الخوف، فحل الغضب ومشاعر أخرى ما كان ينبغي لها أن تكون بين الأخوة الناجين في هذا العالم الهالك.

كانت الدفعة الأولى من النازحين الواصلين إلى باريس هي الأكبر، وسرعان ما فرضوا سيطرتهم وسلطتهم على المدينة. أمّا المجموعة الثانية، فقد أكّدت استقلالها. ظهرت مجموعة ثالثة يقودها رجل مدّعٍ للنبوة. كان يكل الحول والقوة والحكم إلى الإله قولا، إلا أنّه يسعى إلى فعليا إلى السيطرة على مَن يتّبعه. كانت هذه المجموعة الأخيرة أقلّها عددا، إلا أنهم كانوا على قلب رجل واحد، يطيعون قائدهم طاعة عمياء، وذوي جَلَدٍ وبأس لا يلين.

امتلك المرشدون الدينيون نفوذا كبيرا إبّان مرحلة الطاعون. كان ذلك النفوذ أمرا طيّبا لو وُجّه للخير وشرًّا مستطيرا لو كان التعصّب وعدم التسامح روحه. أمّا في تلك الحالة، فقد سيطر على ذلك المرشد نفسٌ أسوأ من هذين. فقد كان دجّالًا بكل ما تحمل الكلمة من معنى. رجلٌ فاقدٌ للنزاهة والاستقامة منذ زمن بعيد لشدة ما انغمس من الملذّات والمجون. ولمّا نهض به ذلك الطموح السقيم، استسلم له ولم يكبحه أيّ تردّد. كان والده واعظا متشدّدا، رجلا شديد الحماسة إلا أنه نقيُّ الطويّة. بيد أن أسلوبه المتشدد في التربية دمّر كل ذرة ضمير في ابنه، الذي حاول مرات عديدة أن يمدّ نفوذه إبّان انتشار الطاعون.

كان أدريان له بالمرصاد من قبل، بيد أن أدريان لم يكن هناك الآن. فتسربل الذئب بثياب الراعي وصدّقت الأغنام تلك الخدعة. شكّل مجموعة من الأتباع أثناء بضعة الأسابيع الأولى من وصوله إلى باريس. وعمل أتباعه بحماسة مفرطة على بثّ دعوته السماوية، مصدّقين بأن الخلاص والنجاة لن يكونا إلا لمن آمن به.

سرعان ما دبّ النزاع ريثما ظهرت أولى بوادر الخلاف. اتخذت المجموعة الأولى قصر التويليري مسكنا لما وصلت إلى باريس. أمّا المجموعة الثانية، فقد دفعتها المودة إلى السكن بالقرب منهم. إلا أنّ خلافًا قام بينهما حول توزيع السلب. إذ طلب قائد المجوعة الأولى أن يسلم السلب كله إلى أصحابه؛ وكان ردّ المجوعة الثانية رفض الانصياع. لمّا ذهبت هذه الأخيرة لجمع الطعام، وجدوا بوابات باريس مغلقة في وجوههم حين عودتهم. وبعد أن فتحوا البوابات اتجهوا إلى القصر، ليجدوا أن المختار الدجّال قد طرد خصومهم منه، وأن جماعته من المتعصّبين قد سيطروا على المكان، ورفضوا أن يسمحوا لأحد بدخول القصر إلا أن يقسم بالطاعة للخالق ولخليفته الذي هو زعيمهم. كانت تلك بداية الصراع الذي بلغ بهم إلى الالتقاء في بلاس فيندوم، وكل منهم عازم على إخضاع الآخرين بالقوة. تلاقوا وقد ذخّر كل طرف منهم بندقياته ووجهها إلى صدور أعدائه، كما سموا بعضهم. كانت كلمة واحدة تكفي لأن يلطخ آخر بني البشر أرواحهم

بالجريمة، ويغمسوا يديهم في دماء إخوتهم. لكن شعورا بالعار خالج قائد المجوعة الكبرى، وأن المخاطرة لم تكن في موتهم فقط بل في انقراض الجنس البشري. علم أنه إن تناقصت الأعداد فلن تعوض، وأن كل إنسان كان جوهرة في تاج ملكي لو تحطّمت فلن تجود الأرض بمثلها. كان شابًّا تسنم القيادة لجرأته وإحساسه بتفوقه على أقرانه. إلا أنه أسف على ما كان منه الآن، إذ أحسّ بأنّ كل دم سيراق إنما هو سافكه. انطلق فجأة على حصانه بين الجموع الثلاثة، وقد علّق منديلا أبيض على طرف سيفه المرفوع، وطلب التفاوض. أطاع القادة الآخرون طلبه. تحدّث إليه بدفء وذكرهم بقسمهم الولاء والطاعة لرئيس إنجلترا. صرح لهم بأن اجتماعهم الحالي إعلان للعصيان والخيانة. اعترف بأنه الغضب كان مسيطرا عليه، إلا أن غمامته انقشعت عنه الآن. اقترح أن ترسل كل مجموعة وفدا إلى إيرل وينزر لطلب حكمه وأن ينصاع الجميع لذلك. قوبل اقتراحه بالموافقة مبدئيا، وقبل كل طرف بالانسحاب. واتفقوا على الاجتماع في تلك الليلة في مكان محايد للتباحث. تمّت المصادقة بشكل نهائي على الاتفاق في ذلك الاجتماع. إلا أنّ زعيم المتعصبين لم يقبل بتحكيم أدريان، وما كان ما أرسل من رجال إلا سفارة تؤكّد خروجه عن طاعته لا وفدا يطلب حكما في صالحه.

كان محدّدًا للهدنة أن تدوم إلى الأول من فبراير، وبعد ذلك سيكون للجموع أن تعود للاحتشاد في بلاس فيندوم. لذا

كان حضور أدريان قبل ذلك اليوم بالغ الأهمية؛ قبل أن يسلم الأمر للقتال ويفرّ السلام من حدة شجارات الرجال، قبل أن يعود ليشهد صمت الموتى. كان اليوم الثامن والعشرون من يناير، ولم تبق سفينة في دوفر إلا وقد حطّمها البحر إلى قطع في غضبته التي أسلفت ذكرها. إلا أن رحلتنا لم تكن تحتمل التأخير. فركب أدريان وأنا واثنا عشر رجلا آخرون بين صديق وخادم على متن القارب الذي جاءت به الوفود، وانطلقنا من شاطئ إنجلترا في الليلة نفسها. تناوبنا جميعا على التجديف، وكان في سبب رحيلنا المفاجئ والعاجل ما كفانا عن التفكير بأننا مودعون لوطننا إلى الأبد. كانت ليلة رائقة تنير النجوم سماءها. ظل خطّ البرّ الإنجليزي القاتم باديا لنا لمدة من الزمن أثناء امتطائنا لظهر البحر الشاسع. أجهدت نفسي بالتجديف لأعجل من سرعة قاربنا. بينما ثرثر الماء بصوت رشاش حزين، نظرت بقلب حزين إلى إنجلترا المحاطة بالماء، وثبتت بصري نحو جروفها الصخرية التي ارتفعت لتحمي أرض البطولة والجمال، من هجمات البحر العاتية التي لا يصدها إلا مثل تلك الأسوار الهائلة. حلّق نورس منفرد فوق رؤوسنا، وطار متّجهًا إلى عشّه في أحد الشقوق. فحدّثت نفسي قائلا، ينبغي لك أن تعود إلى مسقط رأسك، أمّا نحن، فحرام علينا ذلك أبدا. وداعا يا قبر آيدرس! وداعا يا قبرًا يضمّ قلبي، وداعًا لا لقاء بعده.

بقينا في البحر اثنتي عشرة ساعة، وقد استنفد الإبحار جلّ

طاقتنا. أخيرًا وبفضل التجديف فقط بلغنا الساحل الفرنسي. تلاشت النجوم وألقى الفجر الرمادي حجابا خافتا على قرنَي المحاق. نهضت الشمس وهّاجة حمراء من البحر، بينما وطأنا رمال شاطئ كالية. كان أول همّنا تدبير الخيول، وعلى الانهاك الذي طالنا من السهر والعمل، انطلقت مجموعة منا مباشرة للبحث في تلك الحقول الفسيحة المقفرة حول كالية. قسّمنا أنفسنا إلى مجموعات للتناوب، كما يفعل البحارة، فنال بعضنا قسطا من الراحة بينما حضر الأخرون طعام الصباح. عادت فرقة البحث ظهرا وقد وجدوا ستة من الخيل فقط. ركب أدريان وأنا وأربعة رجال آخرين، وانطلقنا تجاه المدينة العظيمة، التي طالما سمّاها أهلها عاصمة العالم المتحضّر. اكتسبت خيولنا التي طالت راحتها طباعا وحشية، فعبرنا السهول حول كالية بسرعة متهوّرة. التفت من فوق مرتفعات بولون تجاه إنجلترا وقد ألقت الطبيعة عليها ضبابا قاتما أخفى جروفها، وامتدَّ بيننا الحاجز المائي الذي لن يعبره مجدّدا أبدا، حيث رقدت على وجه المحيط كبجعة فوق عشّها.

واحسرتاه على ذلك العشّ الخَرِب! غابت بجعات ألبيون إلى الأبد. وستصير قيمة صخرة غير مأهولة منذ بدء الخليقة في المحيط الهادئ في القادم من التاريخ كقيمة إنجلترا المهجورة.

تعطل سيرنا بآلاف المصاعب. اضطررنا إلى البحث عن خيول أخرى بعدما أرهقت خيولنا. ضاعت ساعات ونحن نستنفد حيلنا لخداع أولئك العبيد الأحرار للعودة إلى نير

العبودية. أو في تجوالنا من حظيرة إلى أخرى في البلدات، علّنا نجد خيلًا لم تنسَ السكن في حظائرها. أجبرنا الفشل في الحصول على الخيول على أن نخلف بعضا من أصحابنا. في الأول من فبراير دخل أدريان وأنا بصحبته إلى باريس، دون أيّ مرافقين. انجلى الفجر عن الصبح لما دخلنا سانت دينيس. كانت الشمس مرتفعة لما سمعنا صخبًا، فتبعنا الصوت الذي خشينا أن يكون صوت قرع السلاح، فأرشدنا إلى حيث اجتمع بني جلدتنا في بلاس فيندوم. مررنا بعصبة من الفرنسيين الذين كانوا يتحدثون بحرارة عن جنون الغزاة القادمين من الجزيرة. ثم وبعد أن انعطفنا في أحد المنحنيات، ظهرت لنا بلاس فيندوم فجأة فرأينا لمع السيوف والحراب المثبتة على البنادق، بينما ضجّت السماء بأصوات الصياح والقرع. كان مشهدًا غريبًا ونادرًا في أيام ندرة البشر تلك. انطلق الفريقان المتناحران بعدما امتلؤوا غضبا لشتيمة نالوها أو لبذاءة متخلية. بينما ظل المختار منزويا وكأنه يتحيّن الفرصة للانقضاض على أعدائه في الوقت المناسب، بعدما يضعف بعضهم بعضا. تدخلت قوة الرحمة فلم يُرَق دم. إذ لما هَمَّ الحشدان المسعوران بالهجوم، انطلقت النساء من زوجات وأمهات وبنات بينهم. فأخذن بأعنّة الخيل وتعلّقن بأرجل الفرسان ورقاب الرجال، أو انتزعت السلاح من ذويهم الحانقين. امتزجت صرخات النساء الحادة بصيحات الرجال، فكانت المزيج المرحب بنا حين وصلونا.

لم تكن أصواتنا لتسمع في وسط تلك الضوضاء، إلا أن

أدريان كان بارزا من على ظهر جواده الأبيض. لكز حصانه فانطلق إلى وسط الملأ. عرفه الناس وانطلق هتاف عالٍ محيّيًا إنجلترا ورئيسها. حلّ التراحم بين الأعداء لما أبصروه، وتحلّقوا حوله بتدافع كبير. قبلت النساء يديه وأطراف ردائه، بل نال العناق والتقبيل حصانه أيضًا، وبكى بعضهم فرحا بمقدمه. بدا كملاك رحمة نازل من السماء. لم يكن من خطر سوى أن يختنق بفعل تزاحم المحبّين عليه، فتظهر بذلك بشريته. أخيرًا سمع صوته وأطيع أمره، فتراجع الناس عنه إلا رؤوسهم فقد ظلّوا حوله. لقد رأيت اللورد ريموند وهو يجول بين صفوف الجند، وقد نال طاعة الجند لما عليه من هالة الظهر والعظمة، ولكن تأثير أدريان لم يكن كذلك. فقد كان جسده الهزيل ووجهه المتقد وإيماءاته أدعى إلى التواضع لا إلى الهيبة؛ وكان في ذلك دليل على أنّ الحبَّ الخالص غير المشوب بالخوف هو ما مكّنه من قلوب الناس، لمّا علموا منه من إقدام في الخطر، وأن دافعه الوحيد للقيادة هو الحرص عليهم. لم يعد من فرق بين الطرفين اللذين كانا على وشك سفك دماء بعضهما بعضا، ولم تعد حاجة لخضوع طرف منهما للآخر، إذ أسلم كلاهما الأمر لإيرل وينزر.

ظلت مجموعة واحدة في انعزال عن الآخرين، فلم يبد عليهم أي فرح بقدوم أدريان، ولا أي نية لإحلال السلام الذي لين قلوب بني جلدتهم. كان على رأس ذلك الجمع رجل مكفهر ثقيل الحركة، جالت عيناه بفرح بين وجوه أتباعه الساخطة. لم

يكونوا نشطين إلى ذلك الحين، لكن لما بدا لهم أنهم نسوا في وسط تلك البهجة، تقدّموا وهم يتوّعدون. اتفق أصحابنا الذين كانوا على شفير البطش ببعضهم على كره أولئك، وانتشر بينهم غضب كانتشار النار في الهشيم، غضب أشد ممّا كان بينهم. كرهوهم لتخندقهم عن الناس وعدم اختلاطهم بهم إلا للهجوم عليهم. أيقظ تقدم جيش المختار الصغير الحنق في صدور الناس مجدّدا. رفعوا أسلحتهم وانتظروا أمر قادتهم للهجوم، حين سمع صوت أدريان بوضوح وهو يعطي أمرا بالانسحاب. أطاع أصحابنا الأمر وتراجعوا بعجل وهم يدمدمون استغرابهم من ذلك الأمر. تقدّم أدريان وحيدًا إلى الخصوم. قصد قائد الفرقة الباغية وطلب منه أن يحذو حذوه، إلا أنه لم يطع واستمرّ في التقدّم وجنده خلفه. كان بينهم الكثير من النساء اللاتي كن أكثر عزما من رفاقهم الرجال. تحلّقوا حول قائدهم كدرع له، بينما راحوا يمجدونه بكل حميد ومقدس من الصفات. اعترض أريان طريقهم، فتوقّفوا. قال: «أي شيء تريدون؟ أتطلبون منا شيئا منعناه عنكم، حتى تسعوا لطلبه بالسلاح؟».

أجيب سؤاله بهتاف عام، برزت منه كلمات الخطيئة وعقاب المذنبين.

اختص أدريان قائدهم بنظره وقال له: «ألا تستطيع إسكات أتباعك؟ أتباعي يطيعون أمري كما ترى».

أجاب الرجل بعبوس ثم أمر أتباعه بالتراجع، وقد يكون

خشي من أن يسمعوا ما سيدور بينه وبين أدريان. قال أدريان: «أسألك مجدّدا، أيَّ شيء تريدون منّا؟».

أجاب الرجل مكفهر الوجه: «التوبة. وأن تطيعوا أمر الإله الذي أجلى أمره لقومه الذين اصطفى. أولسنا نموت الآن بسبب خطاياكم يا جيل الكفّار؟ أوليس من حقّنا أن نطلب منكم التوبة والطاعة؟».

ردّ أدريان مستفسرا بهدوء: «ماذا إن رفضنا؟».

صاح الرجل: «حَذَارِ؛ فالربُّ يسمعك وسيصبُّ غضبه على قلبك المتحجّر. ستصيبُك سهامَه المسمومة وتنهشك كلاب الموت الطليقة! لن يذهب موتنا بلا انتقام، فالجبّار سينتقم لنا حين ينزل بعظمته الجلية وينثر الدمار فوقكم».

قال أدريان بازدراء هادئ: «أرجو أن يكون الجهل مشكلتك الوحيدة يا صديقي، إذ ليس من الصعب أن أثبت لك بأنك تتكلّم فيما لست تعلم. لكن يكفيني في الوقت الحالي أن أعرف أنك لست تطلب شيئا منا. ولتشهد السماء على أننا لا نريد منكم شيئا. سيؤسفني أن أقضيَ ما بقي لنا من أيام في الحياة بالنزاع والبغض، فلا حاجة لنا في ذلك في الآن. أمّا إن صرنا تحت الأرض، وأشار بيده إليها، فلن نستطيع إلى ذلك سبيلا. عد إلى وطنك أو ابقَ هنا. اعبد ربَّك كما تشاء ولأتباعك أن يفعلوا ذلك أيضًا. سأصلّي من أجل السلام وإحياء الأمل. وداعا».

أحنى رأسه قليلا للخصيم الغاضب الذي هَمّ بالإجابة،

ثم أدار حصانه تجاه شارع القديس أونور، وأشار إلى أصحابه ليتبعوه. مشى ببطء ليتيح للجميع أن يلحق به، ثم أصدر أوامره بأن يلقاه عند قصر فرساي كل من لم يزل على طاعته. بقي في باريس في تلك الأثناء ليؤمن خروج الجميع منها. في الليلة الرابعة وصل بقية النازحين من إنجلترا واتجهوا جميعا إلى قصر فرساي. جهزت غرف مخصّصة لعائلة الرئيس في الغراند تريانون، حيث نعمنا بالراحة في رفاهية البوربورن الراحلين، بعد تلك الأيام والأحداث المثيرة.



الفصل الخامس

بعد الاستراحة بضعة أيام عقدنا مجلسا لتحديد تحركنا المستقبلي. كانت خطتنا الأولى مغادرة موطننا البارد، والسعي للوصول بأعدادنا المتناقصة إلى نعيم وبهجة المناخ الجنوبي. لم نحدّد أي بقعة بعينها لتكون محطّ ترحالنا. إنما كان حادينا تصوّر خيالي في أذهاننا عن ربيع دائم، حدائق عطرة، وجداول ثرثارة. وصلنا إلى مكاننا هذا في منتصف شهر فبراير، بعدما عطلتنا ظروف عديدة في إنجلترا. إن مضينا في خطتنا الأولى، فسنجد أنفسنا في حال أسوأ ممّا نحن عليه، إذ سينتهي بنا الحال في صيف قائظ في مصر أو فارس، بدلًا من صيف هذه البلاد المعتدل. لذا، كان لزاما علينا أن نعدل من خطتنا، حذرًا من فتك الصيف. كان القرار أن ننتظر مجيء الربيع في منزلنا الحالي، وأن نمضيَ الصيف في وديان سويسرا المتجمّدة؛ مؤجّلين بذلك استئناف رحلتنا نحو الجنوب إلى فصل الخريف، إن بلغنا ذلك الفصل.

وفر قصر وقلعة فرساي مسكنا فسيحا لنا، وتناوبت فرق البحث عن الطعام على استيفاء حاجتنا. كان حال البقية الباقية من البشر غريبا متنافرا. للوهلة الأولى كان الحال أشبه بمستعمرة عبر سكّانُها البحار وضربوا جذورهم في أرض جديدة. لكن لم يكن هناك من نشاط وعمل شبيه بحال تلك

المستعمرات. لم تكن المساكن مشيدة على عجل لتفيَ بالحاجة إلى حين تشييد منازل فارهة، ولم يقصد أحد الحقول ليرقمها ويقسمها، ولم يكن من زرع أو حصاد، ولا فضول يقود الناس إلى الاستكشاف في الأرجاء للتعرّف على حيوانات وأعشاب تلك الأرض المجهولة. كانت مساكننا قصورا وطعامنا مخزنا في مخازن الحبوب. لم تكن من حاجة للكدّ والاستطلاع. لو كنا على يقين من نجاة من تبقى منّا، لكان هناك نشاط وحيوية أكبر في جمعنا. لناقشنا حينها تأمين الطعام في المستقبل بعد أن ينفد ما بين يدينا، وأسلوب الحياة الذي ستتخذ. وكنا أكثر تفصيلا في تخطيطنا المستقبلي وأدق في اختيارنا للأرض التي سننزل. لكن كان الصيف والطاعون على مقربة ولم نجرؤ على التطلّع إلى المستقبل. اشمأزّت القلوب من مجرد التفكير بالاستمتاع. كلّما دفعت روح الشباب شبّانَ قومنا للمرح الصاخب من رقص أو غناء، بغية دفع الحزن والكآبة، كانوا سرعان ما يصيحون بـتجلٍّ للحزن أو انفلات زفرة ممن غلب عليهم أسى الفقد ومنهم من أراد الانضمام للطَرِبين. حتى وإن صدحت ضحكة بين جدراننا، كانت قلوبنا خالية من البهجة. وإن صادف وشهدت محاولة لإيحائها ما كانت تزيدني إلا همًّا وبؤسا. فتراني في وسط الحشد الطالب للبهجة وقد أغلقت عيني لأرى أمامي الفجوة الحاوية لأيدرس والموتى من حولها يغطّون في سبات عميق. وما إن أعد إلى وعيي حتّى أسمع عزف الناي وكأنه عزيف شياطين ذئب غلين، وحلقة الرقص وكأنها طواف الزواحف في دائرة الشعوذة.

كانت أثمن لحظات الطمأنينة حين أعود إلى منزلي حيث يسكن أطفالي. أسمّيهم أطفالي جملة، إذ ربطني بكلارا شعور أبويّ سام. كانت في سنّ الرابعة عشرة حينها. كانت فاترة روح الصبا لما غلب عليها من الحزن ولنفاذ بصيرتها بما حولنا من مصائب. إلا أنّ ذكرى والدها الذي تمجده والاحترام الكبير الذي تكنّه لي ولأدريان زرعا في قلبها الفتى شعورا بالواجب. لم تكن كئيبة على جديتها، ولكن ما عاشته من تجارب مبكرة قمعت رغبة الشباب التي تملكنا جميعا في سنّها، بأن ننشر أجنحتنا ونمدّ رقابنا راجين بلوغ قمّة النضج قفزا على أطراف أصابعنا. كل مجهود لم تكن تبذله في ذكرى وحبّ والديها أو رعاية أقربائها العزيزين كانت تبذله في الدين. كان ذلك القانون المحتجب لقلبها، والذي أخفته بأنانية طفولية وازدادت به تعلّقا لسريته. أي إيمان وإحسان وإخلاص كالذي يكون في أول الشباب؟ كانت مفعمة بالحب والحنان ومحلا للثقة، وهي التي قذفت في بحر الآلام والبؤس منذ طفولتها. رأت يد الإله العطوفة متجلّية في كل شيء، وسَعَت جاهدةً لأن تكون جديرة بعطف ربها. لم يجاوز إيفيلين الخامسة من العمر. لم يعرف قلبه المرح معنى الحزن، وأحيا منزلنا ببراءة الطفولة ومرحها المقرونَين بسنيه.

تنازلت كونتس وينزر عن أحلام السطلة والحكم والفخامة. سيطر عليها إيمان مفاجئ بأن الخير الوحيد في الحياة هو الحب، وأن الفضيلة هي الثراء الوحيد المعلي لمكانة الإنسان. كان

ذلك الدرس الذي تعلّمت من شفاه ابنتها التي أهملت. كرّست نفسها بكل ما فيها من شدة وحماسة لكسب محبّة من بقي من عائلتها. كان قلب أدريان باردا تجاهها في الأيام الخوالي. صحيح أنه لم يقل من احترامها، بيد أن برودها وتكرار غضبها وتذكيره بخيبة أملها فيه جعلت من حضورها أمرًا منغّصًا له. علمت ذلك، إلا أنها ظلّت تحاول بإصرار للفوز بحبّه، وكأن الأمر تحدٍّ مثير لها. كما انتظر هنري إمبراطور ألمانيا أمام باب البابا مستلقيا على الثلج لثلاثة أيام وليالٍ، كذلك انتظرت هي بتواضع ذوبان الجليد على قلبه. إلى أن فتح خادم الحب وأمير الرقة قلبه مشرعا لها، وأسبغ عليها محبّته بكل حرارة. صارت معرفتها، وشجاعتها، وحضور ذهنها عونا كبيرا له في حكمه لذلك الجمع المضطرب، الذي كان انفلاته معلّقا بشعرة.

كان المصدر الرئيس لتعكير صفونا في تلك المرحلة من ناحية الدجّال وأتباعه. استمرّوا بالسكن في باريس، إلا أن مبشريهم كانوا كثيري الزيارات لفيرساي. كان التكرار ناجعا جدًّا، خاصة إن قرن بإيمان شديد حتى وإن كان خاطئا. لذا، فنادرا ما كانوا يفشلون في جذب بعض أصحابنا للانضمام إليهم. ما أن أصبحنا على علم بذلك الأمر حتّى انشغلنا بالتفكير ببؤس أبناء جلدتنا الذين سنترك خلفنا، حين يأتي الصيف ونهم بالرحيل إلى سويسرا، تاركين خلفنا جمعًا مخدوعًا تحت رحمة قائد لئيم. ولد إحساسنا بقلة عددنا وتوقعنا لتناقصه شعورا بالضغط. وإن كان فوزنا بعودة واحد

منا إلينا أمرا يجعلنا نتبادل التهاني؛ فإن إنقاذنا للجميع من قيود ذلك الطاغية المتعنّت وتأثيره السام الذي استسلموا له طوعا وراحوا يئنّون تحت وطأته، سيثير فرحا عظيما. لو رأينا في ذلك الواعظ إيمانا مخلصًا، أو لو علمنا بأنه تسنّم تلك المكانة مدفوعًا بحبّ الخير لأبناء وطنه، لاتجهنا إليه مباشرة وسعينا جاهدين لتليين قلبه. إلا أن الطموح كان دافعه، إذ أراد أن يسود على بقية المشرّدين من قبضة الموت. بل بلغ به التفكير أن يحسب بأنه لو كتبت النجاة لشرذمة من أولئك القلة، لنهضت البشرية من جديد ليخلد اسمه نبيًّا بل إلهًا، إن ظلّ متشبّثا بزمام السلطة، ليصير كجوبيتير الفاتح، سيرابيس المشرع، أو فيشنو الحافظ، ممّن خلدوا بعد الطوفان. جعلته تلك الأفكار عنيدا متصلّبا في حكمه، وعنيفا في كرهه لكل من ظنّ أنه سيقاسمه السلطة في إمبراطوريته المنتحلة.

من غريب الحقائق التي لا جدال فيها أن المرء الصادق والمحب للخير، والعاقل الحليم الذي لا يروم إلا الحق في قوله، أقل تأثيرا في عقول البشر من المتقلّب الذي لا منهج ولا سبيل له، الذي لا ينقض خداعا ولا ينصر حقّا إلا في سبيل مصلحته الشخصية. وإن كان الحال كذلك عبر التاريخ، فقد كان في تلك الأيام أشد مغايرة من أيّ وقت مضى. خاصة أن بإمكان الدجال أن يستخدم الخوف والرجاء كأدوات لصالحه. بينما لا ينطوي الصادق إلا على أمل ضئيل وعجز عن إقناع الناس بطرد المخاوف التي تشغل تفكيره هو. أقنع الواعظ

أتباعه بأن خلاصهم وذريتهم من الطاعون يكمن في إيمانهم وطاعتهم المطلقة له. تشربوا ذلك الإيمان بشراهة، ودفعتهم سذاجتهم الطافحة بالثقة إلى إقناع الآخرين بالانضمام إليهم.

كيف للمرء أن يستميل الناس من ذلك التحالف الفاسد؟ كان ذلك السؤال المؤرّق لأدريان. أعد خططا عديدة لتحقيق ذلك الغرض، لكنه كان مشغولا بتأمين سلامة وولاء من حوله. فضلا عن كون الواعظ بالغ الحرص، كما هو بالغ القسوة. فقد عاش ضحاياه تحت أوامر صارمة أبقتهم شبه حبيسين في التويليري، ولم يسمح بالخروج إلا بأعداد محدودة وتحت قيادة أشخاص معينين تفاديا للفشل. لكن كان بينهم شخص عزمت على إنقاذه. كانت ممن عرفنا في الأيام الخالية السعيدة، ومن المقربين لآيدرس. ولمّا كانت ذات أخلاق رفيعة، زاد أسفي على حالها وكونها تحت رحمة قاتل الأرواح ذاك.

انطوى تحت لواء ذلك الرجل بين المئتين والثلاثمئة من الأفراد. كان أكثر من نصفهم من النساء، وحوالى خمسين طفلا من مختلف الأعمار، وقرابة الثمانين رجلا. سوادهم ممّن كان ينسب للطبقات الدنيا، حين كان للطبقات وجود. كان الاستثناء بعضا من سليلات النبلاء، اللاتي انضممن له بعدما غيبت الفجائع عقولهن. كان من بينهن فتاة رقيقة مليئة بالحياة، جعلت منها طيبتها المفرطة فريسة. أتيت على ذكرها من قبل: إنها جوليت، أصغر بنات أحد الدوقات. يبدو أن الدهر يختار أناسا ليصبّ عليهم جام غضبه، ويغرقهم إلى

شفاههم بالبؤس. كان ذلك حال جوليت سيّئة الطالع. فقدت والديها، إخوتها وأخواتها، وأصدقاء صباها. أتى عليهم الموت جميعا فأخذهم بضربة واحدة. مع ذلك جرؤت على أن تدعي السعادة مرة أخرى. استسلمت لقوة الحب المسكرة بعدما التأم شملها مع محبوبها الذي ملك قلبها وملأه، فلم تعد ترى وتحسّ بوجود سواه. لما استقبلت بشائر الأمومة، خرّ سندها في الحياة، إذ مات زوجها بالطاعون. تملّكها الجنون مدة من الزمن، ثم عادت إلى عقلها بعدما أنجبت طفلتها لتفيق على وحشية الحياة. إلا أن ولادة طفلتها منحتها سببا للحفاظ على نفسها وعقلها. مات عنها كل قريب وصديق، وصار حالها إلى العزلة والفقر المدقع. شوّشت الكآبة العميقة والغضب الشديد تفكيرها، فقرّرت أن تخفيَ عنا سوء حالها. ولمّا سمعت بخطة النزوح الجماعي عزمت على التخلّف والبقاء مع طفلتها، وحيدتين في البلاد الشاسعة ليعيشوا أو يموتوا بجانب قبر محبوبها. فأخفت نفسها في أحد البيوت المهجورة في لندن. كانت هي المرأة التي أنقذت آيدرس في العشرين من نوفمبر، إلا أن الخطر الذي دهمني حينها ومرض آيدرس الذي أعقب ذلك جعلنا ننسى صديقتنا العاجزة. بيد أن تلك الحادثة جلبتها إلى الاحتكاك بالبشر مجدّدا. زاد على ذلك حمى طفيفة أصابت رضيعتها، مذكّرة إياها بارتباطها بالبشرية برباط غير قابل للتلف. لذا انضمّت لأول مجموعة نازحة إلى باريس، للحفاظ على صغيرتها التي صارت محور وجودها.

كانت فريسة سهلة للدجال، إذ جعلتها مخاوفها لقمة سائغة له، ودفعها خوفها على صغيرتها إلى التعلّق بأيّ قشّة لإنقاذها. صيرتها سذاجتها وانفلات عقلها الذي تلقّفته تلك اليد القاسية إلى أداة. فباتت بجمالها الشبيه بآلهة الحكايات وصوتها الذي يقطر رقة وحماسةً بما بثّ فيها، عونًا كبيرا لزعيم القوم المختارين. لمحتها وسط الحشد في يوم لقائنا في بلاس فيندوم، وبعدما استذكرت إنقاذها لفقيدتي آيدرس في ليلة العشرين من نوفمبر وبّخت نفسي على تقصيري وجحودي معها. شعرت بوجوب عدم ادّخار أيّ جهد لأعيدَها إلى نفسها وأنقذها من ذلك المنافق المخرّب.

لن أذكر محاولاتي اختراق حِمَى التويليري، وأفصل في خططي وخيبات أملي وإصراري. نجحت أخيرًا في الدخول إلى هناك، وجلت في ردهات المكان باحثًا بجد عن صاحبتي المضلّلة. تنكّرت مساء لأختلط بهم دون أن أعرف، ودخلت جمعهم الذي كان محتشدًا في الأبرشية ليستمع إلى خطاب نبيهم البليغ. أبصرت جوليت بالقرب منه. سطعت عيناها السوداوان بالجنون بينما كانت مثبّتة تجاهه. حملت رضيعتها التي لم تبلغ العام بين ذراعيها، ولم يلهها عن الكلمات التي استمعت إليها بانجذاب إلا الالتفات إلى رضيعتها. انفضّ الجمع بعد انتهاء الصلاة، وترك الجميع الأبرشية إلا هي. نامت طفلتها التي وضعت على وسادة ثم جلست على الأرض بجانبها تراقب سباتها الهانئ.

عرفتها بنفسي فساد جوٌّ من المرح أول الأمر، ثم ما لبث أن تبدّل بعدما توسّلت إليها بحرارة أن تهرب معي من وكر الخرافات والذل. انتكست إلى هذيان التعصّب وكانت لتكيل لي اللعنات لولا طبيعتها الرقيقة. ناشدتني وهي تأمرني بتركها قائلة: «حَذارِ حَذَارِ! اهرب بينما يمكنك ذلك. أنت في مأمن الآن، لكن إن سمعت فيما أسمع من هواتف عليا صوت الأزلي يهمس لي بأنّ نجاة طفلتي لا تكون إلا بالتضحية بك، سأنادي مريدي من تسمّي بالطاغية وسيمزّقونك إرْبًا إرْبًا، ولن أذرفَ دمعة على موت من أحبت آيدرس».

تكلّمت على عجل، بصوت خافت ووجه مرعوب. استيقظت طفلتها الخائفة وأخذت بالبكاء، اخترقت كل صرخة منها قلب أمّها الشقية فراحت تناديها بأحبّ الأسماء راجية إيّاها الصمت، وتأمرني بغضب بأن أتركها. كنت لأخذها بالقوة وأنقذها من وكر السفاح ذاك لو استطعت. بيد أني أعدمت الخيار، فقد سمعت خطو الأرجل في الردهات وصوت الواعظ يتقرّب منّا. ضمّت جوليت طفلتها إلى صدرها وهربت في أحد الاتجاهات. هممت باللحاق بها، إلا أنّ الدجال ومريديه أحاطوا بي واقتادوني إلى الحبس.

تذكّرت سخط جوليت التعيسة، وتوقّعت أن يصبّ الدجال وأتباعه جام غضبهم علي. استجوبت وكانت أجوبتي متواضعة وصادقة. قال الدجال: «فمه يدينه، فقد اعترف بأن نيّته كانت اضلال اختنا في الله عن طريق الخلاص. خذوه إلى الحبس.

غدا سيلقى الموت الذي أمرنا به ليكون عبرة لأبناء الخطيئة حتى لا يجرؤ منهم أحد على حمانا».

اشمأزّ قلبي من نفاق ذلك الرجل، إلا أني أنفت عن الجدال بالكلام مع متوحّش مثله. لكن حدثتني نفسي، ولم يكن الخوف دافعها، بأنّ على المرء أن يدفع الموت عن نفسه وإن كان خصومه ضلالا كهؤلاء. قلت: «أذكرني جيدا، واعلم يقينًا بأن موتي لن يمرّ دون انتقام. حاكمك الشرعي واللورد الرئيس على علم بوجودي هنا. سيبلغه خبر دمي وستندم أنت وأتباعك على ما ستقترفون من جرم».

لم يتنازل غريمي بالرد عليّ، ولا حتى بأن ينظر تجاهي، إنما قال لأتباعه: «تعرفون واجبكم. أطيعوا ما أمرتم».

حُملت أثناء لحظات مقيّد الأطراف ومعصب العينين. لم تعد لي حرية الأطراف والنظر إلا بعدما أحاطت بي جدران الحبس الذي وضعت فيه.

كانت تلك محاولتي لإيقاظ أتباع الدين الجديد لذلك المجرم. لم أتصوّر أنه سيجرؤ على قتلي. إلا أنني كنت تحت رحمته، وقد كان طريقه إلى السلطة مليئًا بالوحشية. بنيت سلطته على الخوف وكلمة القتل مرجّحة عنده على العفو. قد لا يجازف بإعدام علني، لكن قتلا صامتا سيكون كافيا بإرهاب أصحابي عن الاقتراب من منطقته، وفي الوقت نفسه قد يتّخذ سبيل السلامة ويختار عدم الصدام مع انتقام أدريان.

قبل شهرين رسمت خططي في غرفة أصغر من هذه، وعلمت بأنّ موتي قد يكون في ذلك الأمر. أمّا وقد اقترب الموت، أراني أرتعش منه. انشغل خيالي بتصوّر الموت الذي سيختار لي. أيجوّعني إلى أن أهلك؟ أم سيقدّم لي الطعام المسموم؟ هل سيقتلني أثناء نومي؟ أم سأصارع قتلتي إلى آخر رمق وأنا على علم بحتمية تغلّبهم علي؟ عشت على أرض تضاءل عدد سكّانها حتى صار بإمكان طفل أن يعدهم. جزت أشهر عديدة كان الموت يتخطّف الناس فيها من حولي، بل كان شبح هيكله القاتم يسدُّ طريقي أحيانا. حتّى سخرت من وجهه الكالح، وضحكت على بطشه مزدريًا إيّاه.

كنت لأقابل أي مصير آخر بشجاعة، لا بل أقاتله ببسالة. إنما أن أقضي على يد سفاح في هذه الساعة، بلا صديق ليغمض عيني أو يصلي علي! ليتني متّ في ساحة الوغى. آه يا ملاكي الحارس، لم أعدتني إلى الحياة بعدما وطأت رجلي أعتاب القبر؟ ها أنا ذا أوشك أن أقذف فيه من جديد جثّة مشوّهة.

مرّت ساعات وكأنها قرون. لو سردت جميع ما مرّ في ذهني من أفكار أثناء تلك الساعات لملأت مجلّداتٍ طوالًا. كان الهواء شديد الرطوبة وأرضية السجن متعفّنة باردة. أتى علي الجوع أيضا، ولم يبلغني صوت من الخارج. أعلن الهمجي بأني مقتول غدًا. فمتى سيأتي غدًا؟ ألم نبلغ الموعد بعد؟

أخذ بابي بالانفتاح. سمعت المفتاح يدور في الباب،

والمزلاج يفتح ببطء. سمح انفتاح الباب بعض الشيء بأن تبلغني الأصوات من داخل القصر. سمعت صوت الساعة معلنة بأنها الواحدة صباحا. قلت لنفسي ها قد أتَوا لذبحي، فليست تلك ساعة إعدام علني. تراجعت إلى الجدار المقابل للباب. استجمعت قوتي وانتهضت شجاعتي رافضًا أن أكون شاة طيعة. انفرج الباب ببطء، واستعديت للانقضاض على الداخل للتصارع معه، إلى أن أبدَل ما رأيت فجأة مزاجي. كانت جوليت من فتح الباب. وقفت على عتبة الباب شاحبة مرتعدة بيدها مصباح وتنظر إليّ بوجه كئيب. سرعان ما استعادت رباطة جأشها، وعاد بريق عينها إليها. قالت: «جئت لإنقاذك يا فيرني».

عقّبتُ: «ونفسك أيضًا. هل لنا فرصة في النجاة يا صديقتي العزيزة؟».

أجابت: «اتبعني دون أي كلمة».

أطعت مباشرة. عبرنا ممرّات عديدة مسترشدين بضوء المصباح، نازلين تارةً وصاعدين تارةً أخرى. عند نهاية أحد الممرات فتحتْ منفذًا صغيرا. أطفأ اندفاع الريح ضوء مصباحنا، إلا أننا استعضنا عنه بضوء القمر الذي أنار وجه السماء. قالت: «أنت في مأمن الآن امضِ في سبيلك وليباركك الربّ. وداعًا».

أمسكت بيدها المتردّدة وقلت لها: «أولست تنوين الهروب

معي يا صديقي العزيزة؟ أولم تخاطري بكلّ شيء بعدما سهلت لي طريق الهرب؟ وهل تظنين بأني سأسمح لك بالعودة لتقابلي غيظ ذلك المهرطق؟ لا أبدًا!».

أجابت الفتاة الجميلة بصوت حزين: «لا تخشَ عليّ. ولا تتصوّر بأنك كنت لتهربَ من هذه الأسوار لولا مشيئة زعيمنا. هو من أمرني بإنقاذك. أوكل إليّ مهمّة إرشادك إلى هنا لأني خير من يعرفك، وأكثر من سيشكر عفوه عنك».

قلت: «أتصدقين بكلّ سذاجة ذلك الرجل؟ إنما تركني لأنه يخشى من انتقام أصحابي، كما يخشاني كعدوّ له في حياتي. وقد اختار أن يسمح لي بالذهاب سرًّا حتى يحفظ هيبته أمام أتباعه، فالرحمة بعيدة كلّ البعد عنه. هل نسيت حِيَلَهُ الفظيعة ومكره؟ حريتك من حريتي. تعالي معي يا جوليت، سترحب بك أم فقيدتنا آيدرس، وسيفرح أدريان النبيل بك. ستجدين في المحبّة والسلام أملًا أفضل ممّا في التعصّب. تعالي ولا تخافي، سنكون في فرساي قبل طلوع النهار. أغلقي الباب على وكر الخداع هذا، وتعالي معي يا جوليت العزيزة. فارقي النفاق والذنب إلى صحبة الأخيار والأعزاء».

تكلّمت بحرارة وتعجُّل، وبينما كنت أجذبها بقوة لطيفة إلى المنفذ طوّعتها بعض ذكريات الصبا والسعادة فلانت لي. إلا أنها فضّت يدي فجأة وصاحت: «طفلتي! طفلتي رهينة عنده!». انطلقت في الممر مبتعدة عني، وانغلق الباب

بيننا. ظلّت مسجونة بين أنياب ذلك المجرم، لتستنشق روح الطاعون الملازمة لذلك الشيطان.

داعب النسيم خدي وأشرق القمر ببهاء وكان طريقي خاليا. مضيت ماشيًا إلى فرساي، فرحًا بخلاصي وحزينا في آن الوقت.

الفصل السادس

مرّ الشتاء المرجئ لحتفنا حافلا بالأحداث. مدّت الشمس بأشعّتها المائلة مدة بقائها وتسنمت ذروة السماء مظهرة جمال الأرض، بعدما تنحّت للشتاء والصقيع. أمّا نحن، من كنّا كالذباب المحاصر فوق صخرة هربًا من مدّ الماء، فقد أمضينا وقتنا بغير نفع. إذ أسلمنا قيادنا لعواطفنا وآمالنا وشهواتنا المجنونة. أمّا الآن، وقد سمعنا هدير الخراب القادم، فقد هممنا بالفرار قبل أن تهوي أول موجة على رؤوسنا. عزمنا أن نبدأ رحلتنا إلى سويسرا دون تأخير، ولم نطق صبرا على البقاء في فرنسا. تحت القباب المتجمّدة وأشجار الصنوبر التي أثقل الثلج فروعها، بجانب الجداول الباردة النابعة من الصقيع شبه الذائب، وبين العواصف المتكرّرة التي يطهر يأسها الهواء، هناك سنجد العافية، إن لم تكن العافية موبوءة بذاتها.

بدأنا استعداداتنا بخفّة. لم نودع أرضنا الأم ولا قبور أحبّتنا وداعا لائقا، وكذا قصرنا مع الأزهار والأشجار والجداول التي عشنا بينها منذ نعومة أظفارنا. لذا لن نحزن على وداع باريس إلا قليلا. شعرنا بشيء من العار حين تذكّرنا خلافنا، وأننا سنترك خلفنا قطيعا من البائسين المغيبين، تحت طغيان دجال أناني. سيصيبنا وخز من الحزن حين نترك هذه الحدائق والغابات الغناء، وقصور البوربورن الفارهة الفخمة التي نخشى

أن يدنّسها الموتى. فبديلها وديان أشدّ بهاء من تلك الحدائق، وقصور لم تبنَ لفخامة زائلة بل شادتها الطبيعة لنفسها، فكانت جبال الألب البيضاء جدرانها، والسماء سقفها.

لكن معنوياتنا كانت في خوار مستمر مع اقتراب يوم الرحيل. تكاثرت الرؤي المرعبة ونذر الشرّ من حولنا، حتى أضحى بعضنا يقول: «تلك طلائع الخراب».

شعرنا بالشؤم وخفنا من أن يكون المستقبل منوطًا بتلك النذر. كانت أصواتُ ضبح البوم ضحًى وهزيمُ الرعد في أول الربيع، ورؤيةُ الخفافيش فوق الأسرة وانتشار الآفات التي أتت على الأشجار والأعشاب أمورًا غريبة، إلا أنها كانت أقلّ رعبا مما صورت لنا أخيلتنا. فبعضهم قد رأى مراسم جنائزية ووجوها مبلّلة بالدموع على طول طرقات الحدائق، فحرمهم ذلك النوم ليلا. وآخرون سمعوا عويلا وغناء كئيبا في الجوّ، وكأن الأرواح تغنّي قدّاس فناء جنس البشر. ما كان كل ذلك إلا أمورًا أنشأها الرعب في أذهاننا، جاعلا إيّانا نرى ونسمع ونحسّ بما هو غير موجود. لم يكن ذلك إلا نتاج خيالات مريضة وسذاجة طفولية. بيدَ أنّها وإن كانت كذلك، فقد كان وجودها حقيقيًّا في الأذهان وأثرها باديًا على الأبدان. فقد كانت وجوه من رأوا وسمعوا شاحبة مخطوفة، وأصواتهم مليئة بالهلع. كان أدريان من بين أولئك، وعلى علمه بأن ذلك وهم، إلا أنه لم يستطع دفعًا للرعب. بل بلغ الأمر للأطفال الذين أخذوا يبكون بخوف شديد كلّما جيء على ذكر تلك

القوى الخفية «يجب أن نرحل». فالشفاء من هذه المخاوف في تغيير المكان، والانشغال بالوصول إلى المكان الذي نعتقد الأمان فيه.

حين جمعنا أصحابنا وجدنا أننا ألف وأربعمئة رجل وامرأة وطفل. لم تنقص أعدادنا إلى الآن، ما عدا من انشقّوا عنا وانضمّوا إلى الدجال وآثروا البقاء في باريس. انضم إلينا قرابة الخمسين من الفرنسيين. كان نظام سيرنا سهل الترتيب، إذ قرّر أدريان أن يكون الجميع في مجموعة واحدة، خاصة بعدما فشل نظام الفرق الذي جرّبنا من قبل. انطلقتُ ومئة من الرجال كممهّدين للطريق، وسرنا على طريق كوت دور عبر أوكسير، ديجو، دول، وجورا، إلى جنيف. كُلفت بتحضير نقطة استراحة عند كل عشرة أميال، ليأوي إليها أكبر عدد ممكن بحسب البلدة؛ وترك رسول مع أمر خطّي يبيّن عدد الذين يستطيعون الاستراحة هناك. أمّا بقية جمعنا، فقد قسموا إلى مجاميع صغيرة من خمسين شخصا، منهم ثمانية عشر رجلا وبقيتهم من النساء والأطفال. كان هناك ضابط على رأس كل مجموعة، يحمل لائحة بأسماء أفرادها ليحضرهم يوميا. وإن تباعدت المجاميع ليلا، كان أهل المقدمة ينتظرون من تخلّفوا ليلحقوا بهم نهارًا. كنا نجتمع جميعا في البلدات الكبرى التي أسلفت. حيث يعقد الضبّاط الكبار اجتماعات لتسيير أمور الجميع. كنت في المقدّمة كما ذكرت، وكان أدريان في المؤخّرة. بقيت أمّه معه، مصحوبة بكلارا وإيفلين. هكذا انطلقت بعدما تحدّد

ترتينا. كانت نيّتي ألّا أجتاز فونتنبلو، حيث سألتقي بأدريان بعد عدة أيام لأعود للانطلاق شرقًا مجدّدًا.

رافقني صاحبي عدة أميال من فرساي. كان حزينا، وبنغمة يأس غير مألوفة دعا لوصولنا السريع إلى جبال الألب، ثم أردف معبّرًا عن ندمه لكوننا لسنا هناك الآن. علقت: «نستطيع أن نسرع في سيرنا في تلك الحالة. لم علينا الالتزام بخطّة إن كنت غير راضٍ عنها؟».

أجاب: «لا، فقد فات الأوان الآن. كان مصيرنا في يدنا قبل شهر من الآن، أمّا الآن...» وأشاح بوجهه عني؛ ومع أن الغسق أخفى تعابير وجهه، إلا أنه أمعن في الإشاحة، وأضاف: «مات رجل بالطاعون ليلة البارحة!».

تكلّم بصوت مخنوق، ثم صاح فجأة وقد ضمّ يديه: «أزف هلاكنا سريعا. ستخبو أرواحنا عند مقدمه كما تخبو النجوم عند طلعة الشمس. بذلت جهدي، أمسكت بعربة الطاعون بيدَين متشبثَتين وقوة واهنة، إلا أنها جرّتني معها وراحت تمحق كلّ حيّ في طريقها. ليت الموت يأخذنا سريعًا حتى نرتاح من كلّ ذلك، ونلج القبر معًا!».

انحدرت الدموع من عينيه. تابع: «ستتكرّر المأساة مجدّدًا، ومجدّدًا عليّ أن أسمع أنّات المحتضَرين ونحيب الناجين. سأرى مرةً أخرى الألم يلفّ ما تبقّى من حياة البشر. لمَ أعيش لهذا؟ لمَ لمْ يأتِ الموت على كبش القطيع ليواريني الأرض؟

من الصعب على أيّ ابن امرأة أن يتحمّل ما أقاسي!».

أدّى أدريان واجبه الذي كلّف نفسَه به بقلبٍ شجاع وحسٍّ عالٍ بالمسؤولية حتّى ذلك الحين. تأمّلت حاله بإجلال، وقدّمت بضع كلمات لمواساته وتشجيعه. غطّى وجهه بيديه بينما حاول أن يهدّئ من نفسه، ثم هتف: «لا تسلّمني إلى الموت ولا إلى الجبن يا إلهي، بضعة أشهر فقط. لا تدع مناظر البؤس الذي لا يطاق تقود عقلي الذي ليس ببعيد عن الجنون، أو تدفع قلبي الواهن للانفجار في صدري. آمنت بأن مصيري أن أقودَ وأسودَ آخر بني البشر إلى أن يهلكَني الموتُ، وأنا ماضٍ على ذلك. اعذرني يا فيرني على إيلامك. سأكفّ عن الشكوى. عدتُ إلى نفسي، بل أحسبني أفضل حالًا ممّا كنت عليه. تعلم كيف تصارعت فيّ منذ صباي الأحلام والرغبات مع المرض والحساسية المفرطة، إلى أن غلبت هذه الأخيرة. تذكّر كيف بسطت يدي الواهنة على حكم البلاد بعدما فرّ صاحب الأمر. نابني شيء من تقلّب الرأي في بعض الأحيان، إلا أنني لطالما شعرت، إلى الآن، بأنّ روحًا علوية لا تعرف الكَلَل قد تقمّصت جسدي الضعيف. غفت تلك الروح السماوية مدةً من الزمن. ربّما لتريني شدة ضعفي دونها. إلا أنني أنشدك يا روح الخير والقوة أن تظلي حينًا من الزمن. لا تحتقري هذا الجسد الفاني أيّتها الروح القديرة الخالدة! طالما بقي شخص لنعينه في الحياة، ابقي وقودي هذا الجسد المتهالك».

أحزن قلبي ما رأيت من انفعاله وعبراته التي لم يقوَ على

كتمِها. لمعت عيناه في عتمة الليل كنجمَين حطّا على الأرض، انتهضَ جسدُه وأشرقَ مُحيّاه كأنَّ روحًا خالدةً أفاقت فيه؛ استجابةً لدعائه؛ لترفعَه فوق مصافّ البشر. التفت سريعًا إليّ ومدّ يده. قال: «الوداع يا فيرني، الوداع يا شقيق روحي. لن تنطقَ شفاهي بتعبير ضعفٍ مجدّدا، فقد دبّت الحياة بي من جديد. لننطلق إلى مهامنا وحربنا ضد عدوّنا الذي لا يقهر، فلن أكفَّ عن كفاهي ضدَّه إلى النهاية».

أمسك بيدي وألقى إليّ نظرة ملؤها الحياة. ثم استدار برأس حصانه ولكزه، وغاب عن بصري أثناء لحظات.

مات رجل بالطاعون بالأمس. لم يفرغ حبر المحبرة ولم ينزع وتر القوس. وقفنا كأهداف بينما راح الطاعون يرمينا كرامي فرثي لا يشبع من القتل ولا تزجره أكوام الجثث. غشي الاشمئزاز روحي، وعدا إلى جسدي. ارتعدت ركبتاي واصطكّت أسناني، وجاهد الدم الجامد في عروقي للوصول إلى قلبي المثقل. لم أخش على نفسي، لكن آلمني أننا لن نستطيع إنقاذ القلّة الباقية. وأن من أحبّ قد يصيرون أثناء أيام صلصالا جامدا كآيدرس في قبرها العتيق؛ وأن لا قوة أو حيلة تستطيع دفع ذلك عنهم. أصابني إحساس بالذلة. هل خلق الرب الإنسان ليصير بعد ذلك إلى الفناء بينما ترفل الطبيعة من حوله بالنماء؟ هل منزلة الإنسان في عين الرب كمنزلة الحنطة؟ أمصير أحلامنا السامية إلى التلاشي؟ حسبنا أنفسنا دون الملائكة بقليل، إنما الحق أننا لا نعدو قدر ذبابة

الصيف. اتخذنا لأنفسنا لقب «أكمل المخلوقات»، والحق أننا تراب. تبرمنا لكون الأهرامات فاقت بعمرها عمر بانيها. لكن واحسرتاه! ففي بنيان كوخ الراعي المبنيّ من القشّ عمر أطول من جنس البشر بأسره. كيف لي أن أقبل بهذا الحال، أفبعد السيادة يقبل بالعجز!

نطق صوتٌ داخليٌّ فجأة، وكأنه يقول: ذلك ما كُتب منذ الأزل، عربة الزمن ماضية إلى أجل مسمّى. أتطمح أن تغيّر نواميس الكون؟

يا سيادة الكون... خادمة العلي... نواميس الكون الخالدة الثابتة... يا من تنسجين حلقات الأحداث بأصابعك... لن أعارض أفعالك. عقلي البشري قاصر عن فهم حكمة الأمور. لكن سيكون كل شيء ما دام كل شيء مكتوبًا، سأجلس مبتسما وسط الخراب. لم نولد لنسعد، بل لنرجو ونطيع.

ألن يتعب القارئ إن ذكرت تفصيلًا أيامَ رحلتنا الطويلة البطيئة من باريس إلى جنيف؟ هل ستطيق يدي أو تسعفني اللغة لو شئت تدوين ما حلّ بنا من مآسٍ يوما بيوم، من تكالب وتعاقب للويلات علينا؟ صبرا أيها القارئ... أيّا كنت وأيّا كان مسكنك، سواء كنت من جنسنا أم روحا هائمة ستظل بشريًّا وستظلّ الأرض مسكنك. ستقرأ فيما يلي فصول انقراض جنسنا وتتساءل متعجّبًا، إن كان من قاسى وعانى ما تقرأ من لحم ودم مثلك. قد كانوا مثلك بلا شكّ، فابكهم. ابكهم ولكن

لا تنس الإصغاء لما سأحكي واحفظ آثار أسلافك.

كانت الأحداث الأخيرة من رحلتنا عبر فرنسا مليئة بالرعب والبؤس المقنط، لذا لن أطيل الوقوف عندها. فلو كنت مفصّلا لكلّ حادث لتفتّقت كل ثانية عن قصّة رهيبة، تجمّد الدم في عروقك. حقّ علي أن أشيد لك هذا الصرح الذي سيذكرك بمَن هلكوا. لكن لا ينبغي لي أن أجرجرَك في أجنحة المستشفيات ولا بين القبور. لذا سأذكر الأمر باقتضاب. ستمرّ بك صور الدمار والقنوط والانتصار الأخير للموت مرّ السحاب، تطردُه رياح الشمال عبر السماء المجلّلة بالبهاء.

بات طغيان الأعشاب على الحقول وخلوّ الطرق من الركاب أمرًا مألوفا للعين. بل صار منظر الجثث غير المدفونة، وانتشار أجساد البشر بجانب الطرقات مألوفا إلى درجة لم نعد معها نجفل لرؤيتها، أو نلكز خيولنا للابتعاد عنها. كان ذلك الجزء من فرنسا في أيام عزّها حقولًا على مدّ النظر، وصحيح أنّ غياب الأكواخ والفلاحين كان محزنًا للمسافر من إيطاليا المشمسة أو إنجلترا المُكتظّة، إلا أنّ البلدات كانت كثيرة على الطريق ومليئة بالحياة. كانت ابتسامات الفلاحين وأدبهم، ذوي الأحذية الخشبية، كفيلةً بشرح أيّ صدر ضائق. أمّا الآن، فلم يعد للعجوز الجالسة عن عتبة الباب ومغزلها من أثر. لا الشحاذ الهزيل يطلب صدقة ولا الفلاح يدبّ ببطء ورشاقة في حلقات الرقص في الأعياد. مشى الصمت عروسًا مرافقًا للموت يحلّ معه أينما حلّ.

وصلنا إلى فونتينبلو، وأعددنا سريعا نزلًا لرفاقنا. لما جمعنا أعدادنا ليلا، وجدنا ثلاثة منّا قد فقدوا. حين استفسرت عن أمرهم نطق الرجل الذي سألت كلمة «الطاعون»، ثم خرّ متشنّجا عند قدمي. كان هو الآخر مصابًا. كان الجَلَد سمة الوجوه من حولي. فقد كان من بينهم بحّارة عبروا المحيطات مرات لا تُحصى، جنود قاسوا الجوع والبرد والخطر في أمريكا وروسيا، رجال شبّوا وهم يرَون الدنيا تحاول النيل منهم. نظرت من حولي فلم أرَ إلا وقد غشي الهلع واليأس تلك الوجوه.

أمضينا أربعة أيام في فونتينبلو. مات كثير من المرضى، بينما لم يظهر أحد من ناحية أدريان أو رفاقنا. دبّت الفوضى بين أعضاء مجموعتي. سرت رغبة مجنونة بين الجميع للوصول إلى سويسرا والاندفاع في الأنهار الجامدة والسكن في كهوف الجليد. بيدَ أنّنا وعدنا الإيرل بأن ننتظره هنا، لكنه لم يأتِ. طلب منّي جماعتي أن أقودَهم قُدُمًا. شاع التمرّد بينهم، إن صحّ لنا أن نسمِّيَه بذلك، ورفضوا الإنصات إليّ. لم يكن لتمرّدهم ذلك من قائد. كانت فرصتنا الوحيدة للبقاء على قيد الحياة والنجاة من تلك المخاطر المحدقة في بقائنا معا. نبهتهم إلى ذلك، إلا أنّ أكثرهم إصرارًا أجابوا بتجهُّم بأنهم قادرون على العناية بأنفسهم، وردّوا على توسّلاتي بالسخرية والتهديد.

أخيرا وَصَلَنا في اليوم الخامس رسولٌ من أدريان، يحمل رسائل توجّهنا إلى الاستمرار في التقدّم إلى أكسير، وانتظار قدومه الذي سيتأخّر بضعة أيام هناك. كانت تلك صيغة رسالته

للعامة. أمّا الرسائل الخاصة التي أوصلت إليّ، فقد حملت تفصيلا للمصاعب التي واجهها، وتركت إليّ تقدير حركة مجموعتي في المستقبل. كان ما كتب إلي عن حال الأمور في فرساي موجزًا، إلا أنّ تقرير رسوله الشفهي ملأ ما كان من فراغات، وبيّن لي فداحة الموقف والأخطار المحدّقة به. أبقيت أمر عودة الطاعون طيّ الكتمان في أول الأمر. إلا أنّ ازدياد أعداد الموتى أفشى ذلك السرّ، فتضخم المصاب بمخاوف الناس. قام بعض من أتباع الدجال بنشر دعوتهم بين الناس في تلك الأثناء، مؤكّدين لهم بأن النجاة والخلاص في الإيمان بزعيمهم. كان نجاحهم باهرًا، وسرعان ما تحوّلت غاية سواد الناس من النساء ضعيفات العقول والرجال الرعاديد، من الوصول إلى سويسرا إلى العودة إلى باريس للدخول تحت عباءة الدعي الدجال. راجين بكل جبن أن يؤخّروا الموت بإيمانهم برسول الشرّ ذاك. كانت النزاعات والفوضى الناجمة عن تلك المخاوف المتضاربة ما أخرّ أدريان. تطلّب الأمر كل جهده وإصراره، وصبره على الصعاب ليهدّئ روع بعض من أتباعه. حاول أن يسكن مخاوف الأخرين ويعيدهم إلى الخطة الأفضل لضمان النجاة. كان يأمل أن يلحق بي مباشرة، لكن لمّا عجز عن ذلك أرسل رسوله ليحثّني بالابتعاد بمن معي عن فرساي، حتّى لا تنالهم روح التمرّد والفوضى. وعدني في الوقت ذاته بأنه سيلتحق بي ريثما تسنح فرصة مواتية، ويتمكّن من سحب الجزء الأكبر من الناس من تحت تأثير الشرّ المتسلّط عليهم.

طرحتني تلك الأخبار في حالة من التخبّط المؤلم. كانت ردة فعلي الأولى أن نعود جميعًا إلى فرساي، لنساعد وننقذ سيّدنا من الأخطار المحيطة به. جمعت جندي وعرضت عليهم خطّتي في العودة بدلًا من المُضيّ قُدُمًا إلى أكسير. أجابوا رافضين بصوت واحد. سرى اعتقاد بينهم بأن شدة فتك الطاعون هي ما أخّر الرئيس، لذا التزموا بأوامره ورفضوا ما اقترحت. بل عزموا على المُضيّ دوني إن لم أشأ الذهاب معهم. لم يكن للنقاش ولا المناشدة من طائل مع أولئك الجبناء. زادهم استمرار تناقص أعدادهم تعجّلا في الرحيل، ولم تثمر محاولاتي في ثنيهم بل دفعتهم إلى الاستعجال. فانطلقوا إلى أكسير في تلك الليلة. نكثوا أيْمانهم وعهودهم التي أقسموها لقائدهم. عزمت ألّا أتخلّى عنهم وأهجرهم. فقد بدا لي أنه من غير الإنساني أن أفرض رأيي الوحيد عليهم. ذلك أن الأسبابَ ذاتها التي دفعتهم إلى عصياني، ستقودهم إلى تخلّي بعضهم عن بعض. وستكون رحلتهم التي لا قائد لهم فيها عذابا لا يطاق. طغت علي تلك المشاعر حينًا من الوقت، فخضعت لهم وصحبتهم إلى أكسير. وصلنا إلى بلدة تدعى فيلنوف لا غير، تبعد أربع محطّات استراحة عن فونتينبلو. حين خلد أصحابي إلى النوم، وظللت مستيقظا أقلّب أمر الأخبار الواردة من أدريان، عرضت إلى زاوية أخرى من الموضوع. سألت نفسي، ما الذي أفعله، وما الغاية من تحرّكاتي الحالية؟ كان الواضح أنني سأقود مجموعة من الرجال الأنانيّين إلى سويسرا، تاركا خلفي عائلتي وخليلي الذين هم عرضة للموت في كلّ ساعة، وقد لا أراهم أبدًا مجدّدا.

أوليس الأولى من واجباتي أن أعين الرئيس؛ لأكون مثالا لتلبية نداء الصداقة والواجب؟ من الصعب أن أقف موقف الحياد في خَطب جليل كالذي بلغته، فأيَّ قرار سأتخذ سيوصم بالأنانية. تقودنا تلك الظروف إلى معالجة الأمر بغير رويَّة، وكان ذلك ما فعلت. قرّرت الانطلاق إلى فرساي في تلك الليلة. إن وجدت الأمور أقلّ سوءا ممّا أخالها الآن، فسأعود بسرعة إلى جنودي. لم أدرِ إن كان في عودتي إلى المدينة أيُّ نفع في قيادة الحشد المتخبّط. لم أضيّع أيَّ وقت، أسرعت إلى الإسطبل وسرجت أفضل خيلي وقفزت إلى ظهره. ثم ودون أن أمنح نفسي فرصة للتفكير والتردّد، انطلقت من فيلنوف لا غير عائدًا إلى فرساي.

سرتني مفارقة جنودي العصاة، وغياب صراع الشر والخير عن ناظري ولو لحين، حيث كانت للأول اليد الطولى. كاد الجنون أن يتمكّن منّي لعدم معرفتي لما حلّ بأدريان. لم أحفل بأيّ أمر إلا بما تعلّق بموت صديقي أو نجاته. انطلقت إلى فرساي في الليل، بقلب مثقل يطلب الراحة في المسير السريع. لكزت حصاني الذي أطلق العِنان لحوافره، واشرأبّ برأسه الأبيّ. سبحت النجوم بسرعة فوق ما مررت به من حجر أو معلم أو شجر. حسرت عن رأسي ليلقى الهواء الذي لفه ببرودة مبهجة. نسيت حال البشرية المزريّ ريثما فارقت فيلنوف لا غيير. خطر لي أنه لم يزل هناك سعادة في العيش لمّا رأيت زهو الأرض بثوبها الأخضر، والسماء الموشّاة بالنجوم والنسيم العليل الذي بثّ الحياة في كل شيء. أخذ

حصاني يحسّ بالتعب، بينما رحت أحثّه على الإسراع بصوتي ولكز قدمي. كان حيوانا نبيلا لم أكن لأبدّله بأيّ حصان آخر. ظللنا في سيرنا طوال الليل. أحسّ باقترابنا من فرساي مع طلوع النهار، فاستجمع ما بقي به من قوة للوصول إلى موطنه. كانت المسافة التي قطعنا أكثر من خمسين ميلا، مع ذلك انطلق كالسهم على طرقات المدينة. خرّ المسكين على ركبتيه ريثما ترجّلت عن ظهره عند باب القلعة، ثم استلقى على جنبه مغلق العينين، وشهق بضع شهقات نفخت صدره النبيل، ثم مات. نظرت إلى موته بألم. لم ينتبه حتى إليّ لشدة ما لاقى من آلام وتشنّجات، بيدَ أنّ الأمر كان قصيرًا لفرط حدّة ما قاسى. نسيته وأنا أركض مسرعا في أروقة القلعة وسلالمها، حين سمعت صوت أدريان! سمعت صوته؛ فأجبته بصرخات متأنّثة عفوية! أسرعت إلى قاعة هرقل حيث وقف محاطا بجمع من الناس، التفتوا إلي باستغراب مذكّرين إيّاي بواجب كتمان تلك التصرّفات الخليقة بالفتيات، حتى وإن كان العالم على شفير الفناء. كنت لأبذل أيّ شيء مقابل عناقه في تلك اللحظة، إلا أنّي لم أجرؤ بدايةً. ألقيت نفسي منهكًا إلى الأرض. هل أفصح عن رغبتي بعناق صاحبي المتفرّد؟

وجدت كل شيء في حالة من الفوضى. إذ قام جاسوس من عند المختار الدجّال، مدفوعًا بإغراء نبيّه وإيمانه المجنون، بمحاولة اغتيال الرئيس. أُلقيَ القبض عليه وهو يحاول طعن الإيرل. كان ذلك سبب الفوضى التي شهدت حين دخولي إلى

القلعة، واحتشاد الناس في قاعة هرقل. على تفشّي الخرافات والتعصّب الشيطاني بين النازحين، إلا أنّ بعضًا منهم ظلّ على ولائه للرئيس. بل شعر كثيرون ممّن فارقهم الإيمان به، بتجدّد ولائهم له بعد تلك المحاولة المقيتة. أحاط جدار بشري بالجاسوس الحقير الذي صاح متفاخرًا بنيّته وقرب نيله للشهادة، على كونه أسيرًا مقيّدًا، وكاد أن يمزّق لولا تدخّل هدف اغتياله. أسرع أدريان وحمى الجاسوس بجسده، آمرًا بحزم أصحابه بالهدوء. كانت تلك اللحظة التي دخلت فيها.

عاد الانضباط والهدوء إلى القلعة أخيرا. طاف أدريان بالبيوت وزمر الناس ليهدئ احتقان أصحابه ويعيدهم إلى طاعته. لكن الخوف من الموت لم يزل ساريًا بين الناجين في هذا العالم الخرب. وإن كانت محاولة الاغتيال قد مرّت بسلام، إلا أنّ جميع الأعين طارت تجاه باريس. أطاع أتباع الدجال صاحبهم إلى درجة الاتّكاء على رمح مسموم لو شاء. واستغلّ ذلك الذئب الشَّرِه غفلة ذلك القطيع، فراح يوجّههم كيفما شاء.

كانت تلك لحظة شكّ عظيم هزّت عزيمة أكثر الرجال حرصًا على البشرية. فقد أوشك أدريان للحظة على الاستسلام والرحيل بالقلّة الذين معه، تاركًا البقية فرائس بائسة لإيمانهم الأعمى وتحت عذاب شرّ طاغية. بيد أنه استجمع شجاعته وعزمه بعدما تذبذب قلبه، متسلّحا بصلابة الرأي وروحه المحبّة للخير. في تلك اللحظة هبّت بشارة خير، إذ هدم عدوّه

التعِس بنيانه بيده.

كان سببُ سطوته على عقول الناس ادّعاءه بأن من يؤمن به سيكون من القلّة الناجية، بينما سيأتي الموت على جميع البشرية. زاد بأنّ الخالق أوحى له بأنه خلق البشر وسيفنيهم بالطاعون كما أفناهم بالطوفان من قبلُ، إلا مَن آمن بالنبي الكاذب. من المستحيل أن يعرف امرؤ الأسس التي بنى عليها ذلك الرجل إيمانه بنجاح كذبته. على الأرجح كان يعلم يقينا بأنه قد يلاقي حتفه إن استمرّ في كذبته تلك إلا أنه قرّر المغامرة؛ فإمّا أن يخلد في التاريخ كمرسَل من السماء، أو يفضح دجله بين أبناء جيله المحتضر. على كل حال، قرّر الاستمرار في تمثيليته إلى النهاية. حين جاء الصيف وأخذ الطاعون يفتك بأتباع أدريان، أعلن الدجال بابتهاج حصانة أتباعه من المرض الذي فتك بالعالم. صدّقه أتباعه وراحوا يَفِدون إلى فرساي، بعدما كانوا حبيسين في باريس، ليخالطوا الناس ويمجّدوا قائدهم ويؤكّدوا على اصطفائهم. أخيرًا، بلغهم الطاعون ليحطّم ذلك الوهم، فعاث في جمع المصدّقين وأمطرهم بالموت. حاول الدجّال التستر على الأمر. عاونه بذلك بعض أتباعه ممّن كانوا مطّلعين على أسراره القذرة. كان من يصاب يُخفَى سريعا، يُلفّ في كفن ويُلقى بقبر في ساعة متأخّرة من الليل. وكان يعتذر لغيابهم بأيّ عذر مقبول. أخيرا، قشعت يقظة الأمومة سكرة الإيمان عن إحدى الإناث، فكشفت ما كانوا ينوون فعله لطفلتها الوحيدة. انطلقت بجنون ورعب بين

رفاقها من الواهمين وأيقظت النائمين بصراخ عالٍ رددت فيه خبر الجريمة. حينها قام الدجال مدفوعا باليأس والغضب بآخر أفعاله الشنيعة، وغرز خنجرا في صدرها. هكذا، بجرح مميت وثوب يقطر من دمها، حاملة طفلتها المخنوقة بين ذراعيها، وبجمال وشباب لم يفارقاها كشفت جوليت للموهومين خبث قائدهم. تنبّه إلى نظرة الرعب على وجوه الناظرين، وتحوّلها إلى الغضب. تردّدت أسماء مَن قُتِلوا على شفاه ذويهم، بعدما تيقّنوا من مقتلهم. عزم البائس على تجنّب أتعس مصير ممكن، بعدما تيقّن من وقوعه. أسرع إلى أحد أتباعه الكبار فاستخلص مسدسًا من حزامه، وامتزجت ضحكته الساخرة العالية بدويّ السلاح الذي أردى به نفسه. تركوا جيفته الوضيعة حيث خرّت. وضعوا جثمان جوليت المسكينة وطفلتها على نعش ومشوا في اتجاه فرساي، بقلوب ملؤها الحزن والندم. في طريقهم إلى هناك قابلوا أناسًا انشقّوا عن حماية أدريان، متّجهين للانضمام إلى الدجّال وأتباعه. قصّوا عليهم الخبر الشنيع فعادوا جميعا. هكذا التأم شمل الناجين من البشر أخيرا، وظهروا بين يدي أدريان مرة أخرى ليجدّدوا الولاء له إلى الأبد.

الفصل السابع

شغلت تلك الأحداث وقتا طويلا... ومضى نصف شهر يونيو حتى بدأنا رحلتنا الطويلة. في اليوم اللاحق لوصولي إلى فرساي جاء ستة من الرجال الذين تركت في فيلنوف لا غير، حاملين أخبارًا بأنّ البقيّة باشروا رحلتهم تجاه سويسرا. انطلقنا في رحلتنا على الطريق نفسها. من الغريب أنه حين ينظر المرء إلى مدة قصيرة من الزمن بعد انقضائها، فيحسّ أنّها كانت ردحًا طويلًا ثقيلا. دخلنا ديجون عند نهاية شهر يوليو. ضاع حساب الساعات والأيام والأسابيع، ذابت في بحر من النسيان ومرّت مليئة بالأحداث المهلكة والآلام المعذّبة. لم ينقضِ سوى شهر وبضعة أيام، لو كانت أيام البشر تقاس بشروق الشمس وغروبها. لكن وا أسفاه! فقد اشتعل رأس الشباب شيبًا، وتخندق التغضن في وجنات الأمهات الصغيرات، وتصلّبت أطراف الفتيان واتخذت عجز الشيخوخة، كأنها شلّت بسنين من الأوزار. مرت الليالي وفي ظلمتها الحالكة شاخت الشمس قبل أن تشرق. حلّت أيام الشرق المحرقة في أجوائنا، ولم يغن عنّا نسيم المساء شيئا. مرت أيام وظِلّ الشمس ثابت لا يتحرّك إلا بعد أن يجرّ عمر من الألم والحزن صاحبه المعذّب إلى القبر.

غادرنا فرساي ونحن ألف وخمسمئة نفس. انطلقنا في

الثامن عشر من يونيو. كنّا موكبا طويلا حوى كلّ أشكال المودة والرحمة بين أبناء البشر. جمع الآباء والأزواج ذويهم حولهم لحمايتهم. وجدت الأمهات والزوجات ما احتجن له من دعم من الرجال، واعتنين برقة بالأطفال من حولهن. كانوا حزانى، لكن غير قانطين. ظن كلّ شخص بأنّ أحدًا ما سينجو. أمِنوا بتفاؤل معاند ظلّ مرافقا لطباع البشر حتّى النهاية، بأنّ شخصا من ذويهم سينجو.

عبرنا فرنسا فوجدناها خالية من الناس. إلا من واحد أو اثنين من الناجين في المدن الكبيرة، ممّن جالوا فيها كالأشباح. كان في ذلك زيادة لأعدادنا... أمّا الموت، فقد أفنى منّا الكثير حتى صار من السهل عدُّ الباقين على قيد الحياة. كان مسيرنا بطيئا، ذلك أننا لم نترك المرضى حتى يأخذهم الموت ثم ندفنهم. كانت رحلة طويلة تخلّلها نقص مريع لأعدادنا كلّ يوم، كانوا يموتون بالعشرات وبالمئات. لم يظهر الموت أيّ رحمة، وصرنا نستقبل شمس كلّ يوم بشعور أننا قد لا نراها مجدّدا.

استمرّت الخيالات المرعبة التي روّعتنا في الربيع بالظهور لجمعنا الهلع أثناء رحلتنا البائسة. حملت كل ليلة أشباحًا جديدة لنا، تمثّلت في كل شجرة محطّمة وشجيرة شعثاء. شيئًا فشيئًا صارت تلك الخيالات أمرًا مألوفًا، وحلّت مكانها أمور أخرى. ففي إحدى المرات أكّد كثيرون بأنّ الشمس أشرقت متأخّرة بساعة عن موعدها. وأخرى أقسم الناس فيها أنّ الشمس

فقد وهجها، وأنّ الظلال اتخذت أشكالًا غريبة. يصعب على المرء في الأيام التي خلت تلك، أن يصدق الخطوب التي تصوّر مدى تأثير الهلوسات الحادّة. الحقّ أنّ حواسّنا أوهن ما تكون، إن لم تجد إيمانا جميعًا من حولها. كان حفاظي على عقلي من الإيمان بتلك الأوهام التي سيطرت على عقول سواد الناس أمرًا بالغ الصعوبة. فكوني عاقلًا وحيدًا بين جمع من المجانين جعلني أخشى حتى من تذكير نفسي بأن الشمس لم تتغيّر، وأن أوهام الرعب والرهبة لن تمنح الحياة لأشباح الليل؛ أو أنّ عوي الرياح وحفيفها وهي تهبّ بين الأشجار والمباني الخالية لم يكن محملًا بأصوات العويل والقنوط. كان الواقع أحيانا يتمثل لنا بأشكال تخلع الأفئدة. كان من المستحيل لدم المرء أن لا يتجمّد لرؤية ذلك الخليط بين الحقيقة والأوهام المخيفة.

ظهر لنا في غسق إحدى المساءات شبح متّشح بالبياض. بدت قامته أعلى من قامة البشر العاديين. وقف في منتصف الطريق مشوحا بذراعيه تارة، وقافزا لارتفاعات مذهلة تارة أخرى، ثم راح يلفّ عدة مرات متعاقبة قبل أن يشرئب بجسده إلى أقصى ارتفاع في إيماءة عنيفة. توقّف رجالنا الذين أذعرهم ما رأوا وخشوا أن يكون أمرًا خارقا للطبيعة بعيدًا عن الشبح. زاد المنظر رعبا مع سريان العتمة، حتّى تزعزع قلب الشكّاك في تلك الظواهر ممّا رأوا من ذلك الشبح وقفزاته التي تفوق قدرة البشر. كان يقفز في الهواء حينًا، ويقف متّزنًا في الثوب في

حين آخر قبل أن يعود إلى الطريق أمامنا. لمّا وصلت المكان تجلّى... تمكّن الخوف من الحاضرين في هرب بعضهم، والتمام بعض الآخرين إلى بعضهم. تنبّه ذلك العفريت إلى وجودنا، فاتجه نحونا ثم خطا باحترام إلى الخلف وانحنى محيّيا. كان المنظر مضحكًا حتى لجمعنا المنكود، فردّت تحيته بضحكة عالية. فردّ قامته وكأنه يحاول للمرة الأخيرة، قبل أن يهوي إلى الأرض ويكاد يختفي في عتمة المساء. سرى الصمت بين الجميع. أخيرًا، تقدّم أشجع الرجال ورفع ذلك الشبح، لتظهر حقيقة مأساة ذلك المشهد. كان ذلك راقصًا في الأوبرا، وفردًا من المجموعة التي انشقّت في فيلنوف لا غير. تركه أصحابه بعدما أصابه المرض، وبعدما غلب عليه الهذيان خيل له أنه على المسرح. استسلم عقله الواهن لذلك الخيال وراح يطارد آخر تحية من الجمهور لرشاقته وحسن رقصه.

في واقعة أخرى طوردنا من قبل شبح عدة أيام متّصلة. أسماه النازحون الشبح الأسود. لم يكن يظهر لنا إلا ليلا، ما أسبغ على حصانه الأدهم وردائه المغطّى بالريش الأسود مظهرا باعثا للرعب. زعم أحدهم بأنه رأى وجهه، وأنه شاحب كلون الرماد. كان ذلك حين تأخّر يوما عن مجموعته ثم هَمّ باللحاق بهم، وعند أحد المنعطفات رأى الشبح الأسود قادمًا تجاهه. اختبأ خائفا ومرّ الحصان وراكبه من أمامه ببطء بينما أضاء نور القمر وجه الشبح ليظهر سحنته الشيطانية. في بعض الليالي وأثناء قيامنا على رعاية المرضى، كنا نسمع عدو

حصان في البلدة. كان ذلك الشبح الأسود، يجول في الأرجاء ليذكّرنا بأن لا مناص من الموت. كان بالغ الضخامة في أعين الدهماء. قال بعضهم بأن نفحة من البرد القارس كانت ترافقه، وأن الحيوانات كانت تجفل لسماع صوته، وأن المحتضرين يوقنون بحضور أجلهم. زعموا بأنه الموت بنفسه وأنه جاء بشخصه ليحصد أرواح الناس ويقضي على بقيتنا العاصية لحكمه. في ظهر أحد الأيام رأينا كتلة سوداء على الطريق أمامنا، ولمّا اقتربنا تبيّن لنا أنه الشبح الأسود وقد خرّ عن حصانه إلى الأرض، معذّبًا بالطاعون. لم يطل عذابه أكثر من بضع ساعات. وكانت آخر كلماته ما كشف لنا غموض أمره. كان أحد كبار النبلاء في فرنسا، وقد صار إلى الوحدة بعدما فتك الطاعون بالخلق. جال بين المدن والبلدات والمقاطعات لأشهر عديدة، باحثًا عن الناجين، عله يتخلّص من الوحدة التي تخنقه. لمّا عرف بأمرنا، منعه خوفُه من العدوى من الالتحاق بنا. إلا أنه لم يرد أن نغيب عن ناظره، فنحن آخر من بقي من بني البشر في فرنسا. لذا، قام بتتبعنا متنكّرا بثياب الشبح التي وصفت سلفا، إلى أن أخذه الطاعون ليضمَّه إلى جمع أكبر من جمعنا.

لو أن تلك الخيالات المرعبة كانت كافية لتلهيَ عقولنا عن المآسي التي كنّا نعيش، لكان ذلك أمرًا طيّبا. لكن تلك المصائب كانت أكبر وأجلّ من أن تغيبَ عن أذهاننا ولو للحظة. اضطررنا للتوقّف في مرّات عديدة، لأيام في بعض الأحيان، حتى نواريَ

بني الأرض إلى رحمها من جديد. هكذا استمررنا في رحلتنا في أحرّ الفصول. ولم ندخل أبواب ديجون أيّها القارئ، إلا بعدما صار عددنا ثمانين نفسا فقط.

تقنا إلى تلك اللحظة بحرقة، ففيها أتممنا أسوء جزء من رحلتنا البشعة، وصارت سويسرا في المتناول. لكن كيف لنا أن نهنّئ أنفسنا بهذا الإنجاز الناقص؟ أيعقل أن يكون جمعنا المنهك والبائس هذا آخر من تبقّى من البشر الذين كانوا يغطّون وجه الأرض كما غمرتها مياه الطوفان من قبل؟ انحدر أولهم من جبل أرارات وتكاثروا جيلا فجيلا، فصاروا نهرا هادرا بعدما كانوا مجرد مسرب ماء ضئيل، تفرّعت وتعشّبت مياهه لتبلغ المحيطات. يخرج الإنسان من كوّة مظلمة إلى نور الحياة، بجسد عاجز كالدمية، ويكبر ليتحلّى بالقوة والحكمة ليسودَ الدنيا. لم يعد مجرّد فلّاح أو راعٍ على هذا الكوكب، بل صار كائنًا مكلّلًا بالبهاء والعظمة، بحفّظ شجرة نسبه ويُزيّن قاعاتِه باللوحات الشخصية وأمجاده وألقابه. زال كل ذلك فقد ابتلع محيط الموت كل شيء. كان أول ما ودعنا أسلوب الحياة الذي ظنناه خالدًا، وتلك الحياة التي اعتدنا عليها لآلاف السنين، هجرنا النظام، الحكومة، الحركة المنتظمة، والتعاملات الإنسانية التي شكّلت حياتنا على امتداد ذاكرتنا. ثم هجرنا حب الوطن ومجده وسمعة الأرض الطيبة التي ودعنا. فارقنا الأمل بعودة الأمور إلى سابق عهدها، ولم نعد نأمل شيئا إلا نجاة أنفسنا من هذا الدمار. وحتى ننجوَ بتلك

الأنفس تركنا إنجلترا. إنجلترا التي لم يعد لها وجود، فأنى لها ذلك دون أبنائها. تمسّكنا بما استطعنا من النظام والتدبير الذي يضمن نجاتنا. آمنّا بأن نجاة مستوطنة صغيرة من البشر، ستكون كافية على المدى البعيد لإحياء نسل البشرية.

لكن الأمر قضي! سنموت جميعا ولن نخلف ناجيا ليرثَ الأرض. سنموت عن آخرنا! سيفنى جنس البشر ولن يبقى أثر لجسده الذي أقيم بأحسن تقويم، ولا لحواسّه المذهلة وأطرافه التي خلقت على هيئة الإله، ولا لعقله الذي يتوّج كل ذلك. أستبقى الأرض في مكانها بين الكواكب، أستجري في مسارها حول الشمس دون راصد، هل ستتعاقب الفصول وتتزين الأشجار بالأرواق وتنشر الأزهار عبقها في وحدة دون الإنسان؟ هل ستظلّ الجبال راسخة وتظل الجداول تنحدر منها إلى الأودية الفسيحة؟ أسيرتفع المدّ ويعقبه الجزر، وتهبّ الرياح في أرجاء الطبيعة؟ أسترعى الأنعام وتطير الطيور وتسبح الأسماك بعدما يفنى سيدها الإنسان ولا يبقى من يرصد كل تلك الأشياء؟ أي سخرية هذه! حتمًا هذا الموت ليس النهاية، ولن تنقرض البشرية، إنما ستنتقل إلى حياة أخرى لا تدركها حواسّنا. الموت معبر وطريق إلى الحياة. لنستعجل في عبوره، ونودّع هذه الحياة المهلكة بأن نموت لنحيا.

تقنا برغبة عارمة للوصول إلى ديجون، ذلك أنها محطّة مهمة في رحلتنا. بيد أننا دخلناها وفينا من الألم ما يفوق أشد أنواع العذاب. خلصنا تدريجيا إلى رأي لا نجد عنه تبديلا، ألا

وهو بأن جهودنا ليست كافية لإنقاذ ولو واحد من البشرية على الأقلّ. لذا رفعنا أيدنا عن الدفّة التي لطالما أمسكنا، وراحت سفينتنا تقود نفسها مسرعة إلى قلب العباب الزاخر. كنا نعيش حزنًا وأسى شديدين ونسرف في الدمع على حال من تبقّى من البشر، أمّا الآن، فقد تمكّن التكاسل وعدم المبالاة منّا. فقدنا كثيرًا من الأعزاء الذين تعقلنا بهم في أثناء رحلتنا الكارثية هذه. لا يصحّ لي أن أملأ هذه الصفحات بلائحة بليدة للموتى، لكن أجدني عاجزًا عن الإمساك عن ذكر آخر من فقدنا من أولئك الأعزاء. أصيبت الفتاة التي أنقذت أدريان من الهلاك أثناء تجوالنا في لندن في العشرين من نوفمبر بالطاعون في أكسير. كانت الفتاة المسكينة شديدة القرب إلينا. وكان موتها المفاجئ أمرا محزنا للغاية. حين رأيناها في ذلك الصباح بدت بصحّة جيدة، لكن في المساء زارت لوسي مكان نومنا لتخبرنا بأنها أصيبت بالطاعون. لم يطل بقاء المسكينة على قيد الحياة، فقد ماتت حين بلغنا ديجون. كرست نفسها في حياتها لرعاية المرضى وخدمة من لا معين لهم. أدّى كدّها الشديد لجسدها لإصابتها بحمى خفيفة انتهت بالطاعون، الذي سرعان ما أراحها من عذابها. كانت عزيزة علينا لما فيها من الشمائل الطيبة من طلاقة الوجه والروح أثناء تأدية واجباتها، والصبر على المحن. حين أنزلناها قبرها بدا وكأننا نودّع آخر ما تبقى من فضائل النساء. فعلى كونها غير متعلّمة إلا أنها كانت تتحلّى بصبر وحلم ورفق مميّزين. لن تولد تلك الفضائل وغيرها ممّا اقترن بالإنجليزيّات مجدّدًا. فقد أودعنا ما كان حيًّا منها أسفل

تراب فرنسا الخربة. كان في مفارقتها لنا فراق آخر لوطننا.

ماتت كونتس وينزر أثناء مقامنا في ديجون. أبلغتْ في أحد الأصباح برغبتها في رؤيتي. ذكرتني رسالتها بأنّ عدة أيام انقضت مذ رأيتها آخر مرة. كانت مثل تلك الأحيان كثيرة الحدوث أثناء رحلتنا، عندما أتخلّف للقيام على شخص محتضر من جماعتنا بينما يسبقني بقية النازحين. لكن كان هناك شيء ما في رسالتها تلك جعلني أشكّ بأن أمرا ما قد حصل. خمّنت أنّ شرًّا ما قد أصاب كلارا أو إيفيلين لا تلك السيدة المسنّة. تغذّت مخاوفنا على الرعب الذي نعيشه، لذا جعلتني أظنّ بأن مصاب السيدة المسنّة أمر غير متوقّع، لما فيه من تشابه مع سالف الأيام، حينما كان المسنّون يموتون قبل الصغار. وجدت أم آيدرس المبجّلة ممدّدة على أريكة، وجسدها النحيل مفرودًا إلى آخره. كان أنفها نقطة بارزة في وجهها الهزيل، ولمعت عيناها السوداوان الواسعتان وكأنهما أطراف برق في وقت الغروب. كان كلّ شيء فيها ذاويا ما عدا لمع عينيها. بلغ التغيّر المخيف صوتها أيضًا، أثناء تحدثها المتقطّع إلي. قالت: «أخشى أن يكون في طلبي إليك أن تزور المرأة العجوز قبل أن تموت شيء من الأنانية؛ لكن أحسب أن الصدمة ستكون أكبر لو أن خبر وفاتي نقل إليك فجأة».

أمسكت بيديها الذابلتين وسألت: «أبلغ بك المرض ذلك الحد؟».

أجابت: «ألست ترى الموت في وجهي؟ أجد غرابة في الأمر إذ كان يجب علي أن أتوقّع حدوث ذلك، إلا أنني أعترف أني تفاجأت بالمرض. لم أتمسّك بالحياة يوما أو أستمتع بها قبل بلوغي هذه الأشهر الأخيرة. يصعب علي تقبّل الموت الآن. بيد أني سعيدة لأني لن أموت بالطاعون؛ وعلى الأرجح كنت لأموت في هذه السنّ لو أن الأمور ظلت على حالها».

تكلّمت بصعوبة، ولمحت فيها أسفًا على موتها فاق ما أبدت في حديثها. لم تكن تشكي انقضاء عمرها قبل أوانه، فقد بدا في جسدها أن العمر قد بلغ منها مبلغه. كنا وحيدين في البداية قبل أن تدخل كلارا. التفتت الكونتس إليها بابتسامة وأخذت يد تلك الطفلة المحبوبة. كان لون راحتها الزهري وأصابعها الثلجية مباينا لاصفرار الأنسجة المرتخية في يد صديقتها العجوز. انحنت إليها لتقبّلها فوضعت شفاهها الممتلئة بالشباب على الفم الذابل. قالت الكونتس: «لا أحتاج إلى توصيتك على هذه الفتاة العزيزة يا فيرني، فأنت حريص على ذلك. لو كان العالم كما كان من قبل لأبهرت هذه الجميلة الفطنة بآلاف قصص الحيطة والحذر، لتتوخّى الأخطار التي كانت تحدّق بالجميلات من أمثالها. لكن كل شيء إلى زوال الآن. أودعتك إلى رعاية عمك يا عزيزتي. وإليك أودع رعاية أغلى الناس علي. كوني لأدريان ما كنت لي. اقشعي حزنه ببهجتك، هدّئي ألمه بلسانك الطيب، وإن حضره الموت، فقومي على رعايته كما قمت على رعايتي».

انفجرت دموع كلارا، فقالت لها الكونتس: «لا تبكِ عليّ أيّتها الفتاة الرقيقة. فقد بقيَ لك الكثير من الأعزاء».

قالت كلارا: «إلا أنك تطرين موتهم. أي قسوة هذه! كيف لي أن أحيا إن ماتوا؟ إن قدِّر ليوم قائدي العزيز أن يأتي قبل يومي فلن أستطيع رعايته، لن أملك إلا أن أموت معه حينها».

بقيت السيدة الجليلة حية أربعًا وعشرين ساعة فقط بعد ذلك الحديث. كانت آخر ما يربطنا بالأيام السالفة. كان من المستحل النظر إليها دون تذكّر ما ألفنا منها من أحداث وشخوص. أحداث وشخصيات تكاد لا تمتُّ بصلة بأيامنا هذه، وكأننا نتذكّر نزاعات ثيميستوكليس وأريستيدس أو حرب الوردين في وطننا إنجلترا. أُلبست تاج الملك الإنجليزي، فتجلّت لنا ذكريات والدي وما جرى له من سوء الطالع، وصراعات الملك الراحل، وصور ريموند وإيفادني وبرديتا الذين عاشوا الحياة في زهوتها. أخفضناها إلى القبر ببطء، ولمّا التفتُّ مبتعدا عن قبرها، أشاح يانوس بذكريات الماضي عني.

بعدما أمضينا في ديجون أسبوعًا، وبعد أن سرق الموت من جمعنا الضئيل ثلاثين منا، عدنا إلى المسير تجاه جنيف. وصلنا في ظهيرة اليوم اللاحق إلى سفح جورا، حيث توقّفنا للاستراحة من حرّ النهار. كنا خمسين شخصًا فقط، آخر من تبقّى من البشر في هذه الأرض وافرة الطعام. اجتمعنا لنقرأ في

وجوه بعضنا إمارات الشحوب من طاعون، حزن منهك، قنوط أو عدم مبالاة بالشر المحيق أو بما يحمل المستقبل. اجتمعنا عند سفح ذلك الجبل الشاهق أسفل شجرة جوز. سقى الأرض الخضراء جدول رقراق، وسقسقت الجنادب من فوق أعشاب الزعتر. كنا جمعا بائسا حقيرا. هزت أم بذراعيها الهزيلتين طفلها، الأخير بيننا، الذي أوشك أن يغلق عينيه إلى الأبد. جثت شابة اختطف الشحوب والهمُّ جمالها لتبرد بمروحة وجه محبوبها المسجى، والذي حاول جاهدا أن يرسم ابتسامة شكر على وجهه الذي شوّهه الطاعون. جلس رجل عركته الحياة في ناحية بعدما أعد طعامه، ثم أطرق رأسه، وسقطت السكين من يده وارتخت أطرافه، بعدما مرت به ذكرى زوجته وأبنائه ومن فقد من أقربائه. في جانب آخر جلس رجل نعم في عيش هانئ لأربعين عامًا، وقد أمسكت يده بيد ابنته التي بلغت رشدها للتوّ. نظر إليها بعينين قلقتين، بينما كانت تحاول تصنع العافية لتهدئ من روعه. وفي ناحية أخرى قام خادم وفي لم يزعزعه المرض عن خدمة سيده، الذي كان في صحّته إلا أنّ الرعب قد أودى بقلبه.

وقف أدريان مستندا إلى شجرة وحاملا كتابا في يده. إلا أن عينيه لم تكن إلى الصفحات، بل جالت تبحثُ عني. كانت الشفقة بادية في نظرته، وبدا على محيّاه أنّ أفكاره لم تكن حول تلك الورقات، بل مستغرقة فيما حوله من أحداث أجلّ وأعظم على صفحة الأرض. بعيدا عن الجميع وعند حافّة الجدول،

حيث يلثم الماء خضرة الأرض، كانت كلارا وإيفيلين في لعب ولهو، يضربون الجدول بأغصان كبيرة ويراقبون ذباب الماء. كان إيفيلين مستمتعًا، يطارد فراشة تارة ويجمع الأزهار لابنة عمّته تارة أخرى. وشت ضحكات وجهه البريء بسعادة قلبه النابض في صدره. حاولت كلارا أن تجاريه في المرح، إلا أنها كانت كثيرا ما تنساه لالتفاتها نحوي وأدريان. بلغت سنّ الرابعة عشرة وظلّ وجهها طفوليا، على بلوغها طور النساء. كانت أمًّا حنونا لطفلي اليتيم. لا يسعك إلا الأعجاب بصبرها ودماثة خلقها حين تراها تلعب مع الصغير، وتقوم على حاجاتنا بطيب خاطر. أمّا في عينيها وصفاء وجهها المرمري، وتعابير شفاهها فطنة وجمال يثيران الاحترام والحب.

حين انحدرت الشمس في الأفق الغربي وامتدّ طول الظلال، تأهّبنا لصعود الجبل. جعل اهتمامنا بالمرضى تحرّكنا بطيئا. كان طريق الصعود الملتوي شديد الضيق والانحدار، مليئًا بالصخور والعقبات. نادرا ما كنّا نجد ما يظلّنا من الشمس وشعاعها الذي أصلانا حرًّا منهكا. كانت صغار الأمور تعظم علينا في بعض الأحيان، وكنا نستثقل وزن الجندب كما قال العبري في سفر الجامعة. كان أدريان كعادته أول من ينهض للصعاب ويقتحمها، على الرغم مما كان فيه من إنهاك وتعب. ترك اختيار الطريق لغريزة حصانه الذي أرخى العِنان له. كان يتحامل على نفسه ليجلس منتصبا بحذر كلما أشرفنا على جرف سحيق. أصابني الرعب والخوف. هل تعبه البالغ علامة

على إصابته بالطاعون؟ إلى أي وقت أستطيع أن أحافظ على ذلك الصديق الذي لا مثيل له؟ إلى أيّ حدّ ستطاوعه أطرافه؟ ولكم من الوقت ستظلّ شمعة الحياة مشتعلة فيه؟ استمررنا هكذا في صعود كل عقبة لنجد أخرى خلفها، وبالالتفاف حول كل زاوية لتظهر لنا أخرى مماثلة لأختها إلى ما لا نهاية. كانت وطأة المرض على بعض المرضى تتسبّب في توقّف الموكب بأسره. كان العطش والتعب والألم، ونشجات الباكين المكتوبة، رفاق جمعنا في طرقات جورا.

كان أدريان في المقدمة. رأيته بينما كنت منشغلا بحلحلة السرج، وهو يكافح لصعود طريق منحدر بدا وكأنه أصعب الطرق التي مررنا بها إلى ذلك الحين. بلغ القمّة واعتدل في استراحة وقد ظاهرته السماء. بدا وكأنه أبصر شيئا باهرًا غير متوقّع، إذ اشرأبّ رأسه ومدّ ذراعيه وكأنه يحيي شيئا! انطلقت إليه يحدوني الفضول. بعدما كافحت عدة دقائق منهكة على المنحدر، برز لي المنظر الذي لفّه في دهشة منشية.

كشفت الطبيعة جمالا بهيا لا يضاهى في لحظة مفاجئة. ففي الأسفل السحيق امتدّت بحيرة ليمان الزرقاء تسوّرها التلال الغنّاء. ومن خلفها، قامت جبال قاتمة متعاقبة كالأوتاد، سورًا آخر حاميا. في البعيد انشقّ المنظر عن هامة جاوزت كل ارتفاع وقبلت السماء، فبدت قمّة الألب العظيم مزاحم النجوم في ثوب أبيض متلألأ تحت بريق الشمس. زادت الطبيعة في الإبهار في انعكاس تلك الجبال الضخمة وصخورها المدبّبة

على صحفة الماء في الأسفل، فكانت وكأنها تغطس قممها الأبية أسفل الأمواج لتقلق مساكن الحوريات. انتشرت البلدات والقرى منبثة في سفح جورا، الذي امتدّت جذوره في الوهدان والصخور الناتئة إلى أن بلغت حدود البحيرة. سحرني ذلك المنظر حتى نسيت موت البشرية ووجود صديقي بجانبي. حين التفت إليه وجدت الدمع وقد تحدّر من عينيه. ضم يديه وأشرق وجهه بالتعظيم، وقال أخيرا: «لمَ تهمس لي بالحزن يا قلب؟ تشرّب من جمال هذا المنظر، واغرف منه بهجة تفوق ما سمعنا عنه في الفردوس».

تدريجيا بلغ الجميع قمة ذلك الجرف، ولم يخل وجه واحد منهم من الانبهار الشديد. هتف أحدهم: «كشف الربُّ جنّتَه لنا، لنموت بسلام». راحوا يطلقون واحدًا تلو الآخر تعابير بليغة لتصف نشوة سحر الطبيعة ذاك. بقينا في ذلك المكان لحين من الوقت، لننسى الموت ونرتاح من وطأة الحياة قبل أن نلج ليل ذلك اليوم. سهت أفكارنا عن احتمال كوننا آخر من سيمتع بهذا البهاء من البشر. كانت نشوة سعادة مفاجئة، شعاع شمس أنار حياتنا المظلمة. وهدية ثمينة للبشرية التي مزقها الحزن، إذ أحيت مشاعر مطربة في وسط الهلاك الذي أمات كل أمل.

ميّز ذلك المساء حدث آخر. ففي أثناء عبورنا بفيرني في طريقنا إلى جنيف، سمعنا صوت عزف غريب من كنيسة ريفية محاطة بالأشجار والأكواخ الخاوية. قشعت جلجلة الأورغ السكون من الجوّ، وامتزجت مع جمال المناظر التي زيّنت

الجبال والغابات والمياه. آه يا لغة الخالدين وشاهد وجودهم، يا ابنة الحب ومسكنة الألم، يا ملهمة البطولة وقادحة الأفكار، نسيناك في خرابنا! لم يكن من نغم صوت أو ناي أو وتر ليؤنّسنا في المساء. تجليت لنا الآن كمخلوق لا عهد لنا به، وأطربت أسماعنا كما أطربت الطبيعة أبصارنا، حتى خلنا أننا بلغنا مساكن الأرواح. غشينا صمت من هول الدهشة، كأننا حجاج بلغوا مزارهم المقدّس فرأوا وسمعوا صوت إلههم. وقفنا صامتين، وجثا الكثيرون على ركبهم. لكننا أرجعنا إلى الأرض لما سمعنا لحنا مألوفا. كان اللحن من موسيقى «خلق جديد» لهايدن. لحن فيه من الوهن ما يشابه حال البشرية، إلا أنّ جمال العالم الشبيه بأول خلقه كان خليقا باللحن ذاك. دخلت وأدريان إلى الكنيسة. كان صحن الكنيسة خاليا على اشتعال البخور فوق المذبح، معيدا ذكريات القدّاسات العظيمة في الكاتدرائيات المزدحمة. صعدنا إلى الطابق العلوي. وجدنا رجلا مسنًّا أعمى جالسًا بالقرب من منافيخ الأرغن. كان مصغيًا للسمع وقد على وجهه بريق من المتعة. صحيح أن عينيه المعتمتين لم تستطيعا الإفصاح عن ذلك، إلا أن انفراج شفتيه وانشراح قسمات وجهه نطقا بالبهجة. جلست امرأة شابة على مقعد العازف، ربما كانت في سنّ العشرين. تدلّى شعرها الكستنائي حول رقبتها، وأشرف وجهها بجمال فريد. لكن عينيها الذابلتين سرعان ما أحدرتا الدمع، بينما أشعلت مكابدتها كتم نشيجها حمرة خديها الشاحبين. كانت هزيلة واهنة أحنى المرض هامتها. وقفنا ننظر لذلك الثنائي ناسين ما

حولنا، إلى أن ضرب الوتر الأخير وخفتت جلجلة الموسيقى. خرست جلجلة الأرغن المهيبة، والتفتت الفتاة إلى صاحبها المسنّ لتساعده فلمحتنا.

كان الشيخ والدها، وكانت هي دليل خطواته منذ طفولتها. كانا من ألمان ساكسونيا وقد هاجرا إلى هنا قبل عدة سنوات وصارا من سكان هذه القرية. انضم إليهم طالب ألماني في حوالى الفترة التي انتشر فيها الطاعون. كان من السهل التكهن بما سيتلو من قصتهم. فقد أحبّ الشابّ النبيل ابنة العازف الفقير، وتبعهم بعدما فروا من اضطهاد أصحابه. لكن سرعان ما دهمهم هادم اللذات وراح يحصد الكبير والصغير. كان الشاب من أوائل ضحاياه. أما هي فقد حفظت نفسها من أجل والدها. أتاح كفاف بصره لها أن تخفي الحقيقة عنه. فلم يكن يدري وهو يستمع إلى عزف طفلته، بأن الجبال الصم والبحيرات والأشجار مستمعوها الوحيدون.

في اليوم الذي وصلنا فيه ظهرت عليها أعراض المرض. شلّها الخوف الشديد من فكرة ترك والدها المسنّ الكفيف وحيدا في تلك الأرض الخالية. لكنها لم تجرؤ على إظهار الحقيقة، بل قادها يأسها إلى إنهاك جسدها بشكل أكبر. قادته إلى الكنيسة عند موعد صلاة المساء، وعلى نحيبها وانفعالها على حاله، إلا أنها عزفت بلا خلل أو زلل تلك المعزوفة التي كتبت للاحتفاء بخلق هذه الأرض الغناء، التي ستصير قبرا لها قريبا.

كنا كمَلاكَين أرسلا من السماء. فما أن رأتنا حتى فرّ عنها التجلّد والتماسك. ركضت تجاهنا وهي تصرخ، عانقت ركبتي أدريان وكرّرت الكلمة نفسها، «أنقذوا والدي!». اطلقت ما كانت تكتم من حزن وهلع ببكاء وصراخ هستيري.

يا لَلفتاة المسكينة! ترقد الآن ووالدها جنبًا إلى جنب أسفل شجرة كستناء شاهقة، حيث يرقد حبيبها وحيث أشارت لنا بدفنها أثناء احتضارها. بعدما عرف والدها بما أصابها من مرض وما يحيق بها من خطر، تشبّث بيدها بعناد إلى أن تصلّبت بالموت. لم يحرّك ساكنا أو ينطق بكلمة، إلى أن أخذه الموت رحمة بحاله بعد مضي اثنتي عشرة ساعة. صاروا أسفل تراب شجرتهم. لا تزال قبورهم بين جورا الوعرة وجبال الألب الشاهقة محفورة في ذاكرتي. ظلّت قمّة الكنيسة التي اعتادوا زيارتها بارزة من بين الأشجار المحيطة بها. وإن كان الموت قد أيبس يدها إلا أنني أعتقد أن موسيقاها السماوية لا تزال في الأرجاء مسلية لأرواحهم الرقيقة.

الفصل الثامن

وصلنا إلى سويسرا، هدفنا ومطلب رحلتنا المجهدة الطويلة. نظرنا إلى تلالها وأجرافها الجليدية بمتعة وأمل، وشرعنا صدورنا لرياح الشمال الباردة التي هبّت قارسة حتى في عزّ الصيف. لكن كيف لنا أن نحيي آمالنا بالنجاة؟ فكما الحال في وطننا إنجلترا وفي فرنسا الواسعة، خلت أراضي هذه البلاد من ساكنيها. لم يعصمهم رأس جبل ولا نهر جامد ولا رياح الشمال الباردة، ولم يطرد هزيم الرعد المرض عنهم، فكيف لنا أن نأمل بأن نستثنى؟

مَن بقي منّا حتّى يُنقذ؟ أيّ جمع جلبنا لنصمد في عراك الموت؟ لسنا إلا قلّة أخنعت لتلقى الضربة الآزفة. جمع يكاد يموت من شدة الخوف من الموت، عاجز لا يبدي مقاومة ولا بالا، كمن رفع يده عن دفّة السفينة في عزّ العاصفة مسلما أمره لفتك الرياح. كمثل سنابل حنطة تركت بلا حصاد لتلقى عواصف الشتاء. كمثل من تأخّر من طيور السنونو عن هجرة صحبهم، فأرداهم صقيع نوفمبر. كمثل خروف تائهة يجول فوق تل يغطيه الجليد ليموت قبل طلوع النهار، بينما القطيع في حظيرته. كغيمة ساقتها رياح الشمال إلى سماء الجنوب، لتتلاشى وتختفي في الأثير. كذلك كان حالنا.

تركنا ضفاف بحيرة جنيف الساحرة، وولجنا أودية الألب. تتبعنا نهر الأرفي لنصل إلى منبعه، قاطعين في طريقنا وادي سيفروكس المكتنف بالصخور، مجانبين الشلالات العظام وماشين في ظلال الجبال الشاهقة. أعقب استتارنا بأشجار الكستناء وافرة الظلال، استتار بأشجار الصنوبر القاتمة التي قاومت جذوعها آلاف العواصف. ثم تبدّلت تلك الأراضي المخضرة والتلال المعشوشبة بالجبال الصماء العقيمة التي تنتظر أن تكتسي بزهو النبت الجميل. من الغريب أن نلجأ إلى هذا المكان! فلم تكن تلك الأرض أمًّا حانية على أبنائها بالغذاء، بل كان ترزح تحت جوع مرجف حتى تشقّقت له جبالها. ولا كانت ممّا اعتاد أن يسكن البشر إليها، بل أرضًا محطّمة لهم. عبثا قصدنا نهر شاموني والجليد الذي يغطّي مياهه، البساتين العارية من الأوراق، ممرات الانهيارات الثلجية وقمم التلال والجبال حيث تهوي العواصف الرعدية. بيد أنّ الطاعون كان سائدا حتّى هناك. مع تعاقب الليل والنهار الذين تناوبوا الوقت مناصفة كأخين توأمين، رحل أصحابنا واحدًا تلوَ الآخر مغمضَين أعينهم إلى الأبد، أسفل ظلال الجليد، وبجانب مياه ثلوج آلاف الأشتية الذائبة.

لكن لم نكن مخطئين في سعينا إلى مكان كذلك، ليكون مشهد نهاية مسرحيتنا. واستنا الطبيعة حتى في عزّ بؤسنا. فقد أسكنت ضخامة الجبال روع أفئدتنا، وتجانست أشكالها مع دمارنا. كثير من المصائب ألمّت بالإنسان في حياته المتقلّبة.

وكثير من المفجوعين وجدوا أنفسهم ناجين وحيدين من بين الهالكين. اصطبغت مأساتنا بمهابة خلعه عليها عظم الخطب، فجلّت به وكبرت. على كوننا بين فجاج داكنة تنضح بالجداول الثرثارة، أسفل ظلال الصخور الحالمة وعلى الطرقات المكتسية بالطحالب، إلا أنّ أنفسنا تاقت إلى تلك المهابة البعيدة. إذ لم يسم بأرواحنا من أجسادنا الفانية الواهنة شيء كقمّة الألب البيضاء المثلّجة الشاهقة.

ضبطت مهابة الموقف والمنظر مشاعرنا، وهيّأتنا لاستقبال نهايتنا. غشيت كآبة وقورة موكب آخر الفانين من البشر. سمت مراسم جنازتنا تلك فوق جنائز الملوك في الأيام السالفة، لما اكتنفها من مناظر باهرة. أعددنا طقوس دفن آخر من مات من البشر بالقرب من منبع نهر الأرفيرون، ليبقى أربعة منا فقط. تركت وأدريان كلارا وإيفيلين في نوم هانئ، وحملنا ذلك الجثمان إلى أحد الكهوف الجليدية التي يغطّيها جليد رقيق. كان الجليد رقيقا إلى درجة سقوطه لأخفض الأصوات وأهدئ الحركات. عمدنا إلى ذلك كي لا يدنس سبع أو جارح ذلك الجسد. أودعنا الجثمان في الفجوة الجليدية بصمت وخطوات حريصة، ثم غادرنا ووقفنا على الصخور في المجرى النهري. على صمتنا وحرصنا، كان الهواء ووجودنا كافيَين لزعزعة ذلك المكان. فهوت قطع كبيرة من الجليد ريثما غادرنا الكهف، لتطمر الجثمان البشري الذي وضعنا هناك. اخترنا ليلة رائقة مقمرة، بيد أن طريقنا كان طويلا فغاب

القمر خلف المرتفعات الغربية مع إتمامنا لمهمتنا. أشرقت الجبال المغطّاة بالثلج والجليد بنور ذاتي. كان الوهد شديد الانحدار والوعورة، المشكّل لجانب جبل أنفيرت مقابلا لنا، وعلى جانبنا نهر جليدي. كان الأرفيرون أسفل منا، يجري بقوة مزبدًا مبيضًا فوق الصخور الحادة الناتئة منه، محدثا دويًّا عاليا بهديره، ومثيرًا سكون الليل. تراقصت بروق صفر بصمت حول مونت بلانك لتنير قمّته المكلّلة بالثلج. كان كلّ شيء أجردَ موحشًا ومهيبا، بينما أضفى نغم أشجار الصنوبر لمسة لطيفة لذلك المشهد الرهيب. تارة يضجّ الهواء بدويّ الجليد الساقط، وتارة يصم آذاننا هدير الانهيار الثلجي. في البلدان الأخرى ذات التضاريس الأقل ضخامة من هذه، تعلن الطبيعة عن قواها في أوراق الشجر، في نبت الأعشاب، وفي ثرثرة الجداول الناعمة. أمّا هنا حيث التعملق ميزة المكان، فالسيول والعواصف الرعدية والعباب، أصوات الطبيعة الناطقة. كانت تلك المقبرة القداس والحضور المتأهبين لاستقبال جنازتنا!

لم يكن ذلك اللحد وتلك الجنازة فقط لآخر بشري مات منا. بل أودعنا قبرنا الطاعون معه، فاختفى من الأرض. لم يحتج الموت يومًا لسلاح لينتزع الحياة من الأحياء، وكنا في حالنا تلك قلّة مستضعفة معرضة لكل أشكال الخطر التي تموج في هذه الحياة. بيد أنّ الطاعون لم يكن من بينها. كانت له اليد الطولى سبع سنين. جال في كل أصقاع الأرض ممتزجا بالهواء الذي لفّ جميع الأحياء في قارتنا أوربّا، آسيا الغنّاء، أفريقيا

السوداء، وأمريكا الأبيّة، كما تلفّ العباءة الجسد، فأفنى كل من فيها. انتهى طغيانه الهمجي في وادي شاموني الصخري.

لم يعد لمشاهد البؤس والألم الناجمة عن ذلك المرض من وجود في حياتنا. انقطع اسم الطاعون عن أسماعنا. لم تعد صورة الطاعون المتلبّس للإنسان شاخصة أمام أعيننا. لم أر الطاعون قطّ مجدّدا منذ تلك اللحظة. تنازل عن عرشه وطرح من يده صولجان الملك فوق قطع الجليد المحيطة بنا. خلف لنا الوحدة والصمت شريكين ليسودا من بعده.

لست متأكدا إن كانت تلك المعرفة قد جلت لنا أثناء مقامنا في تلك الأرض البلقع أم لا، ذلك أن اختلاط مشاعري وذكرياتي لتلك المرحلة مشوّش بعض الشيء. لكن أظنّ أننا علمنا بذلك في ذلك المكان. إذ شعرنا بأنّ غمّة انكشفت عنّا، وأن حملا انزاح عن كاهلنا، فانشرحت بذلك صدورنا وجسرنا على رفع رؤوسنا. مع ذلك لم نأمل بالنجاة. صحيح أنّ الطاعون لن يكون مهلكنا، لكن لم نزل نشعر بأن الموت يطارد البشرية. كانت تلك المرحلة أشبه ما تكون بنهر عارم فيه قارب يعلم قائده بأنه لا يجب أن يخشى من الصخور البارزة، بل من الأخطار الكامنة؛ ومع مُضيّه في تلك المياه الهائجة تظهر له أشكال غريبة مخيفة فيراها وهو متّجهٌ إليها لا محيد له. ماذا سيكون مصيرنا؟ من لي بوحي من عرافة دلفي لتنطق لنا بأسرار مستقبلنا! من لي بأوديب، علّه يفكّ ألغاز هذه الحياة القاسية! قُدّر لي أن أكون كأوديب. لا رجلًا حصيفًا بفكّ الألغاز، بل

معذّبا بحياة ملؤها الأسى، ليكون العذاب مفتاحي لفهم أسرار القدر وفكّ رموزه، بعدما حكم بفناء البشرية.

عكرت أذهاننا أفكار قاتمة كتلك، وحرّكت فينا مشاعر بعيدة عن الهناء. كنا في ذلك القبر الذي شيّدته الطبيعة، تحيط بنا الجبال الصمّ الجاثمة فوق عروقها. قال أدريان: «بقينا كشجرتين نجتا من عاصفة اقتلعت غابة. تركنا لننعي ونهزل ثم نموت. لكن تظلّ هناك واجبات علينا القيام بها حتى الآن. فمن واجبنا أن نثير البهجة كلما وحيثما استطعنا، وأن نقشع غيوم الحزن بألوان قوس الحب. لن أشيخ في هذه البقعة الجرداء التي حسبنا خلاصنا فيها. شيء ما ينبئني يا فيرني بأنه لا يجب لنا أن نخشى الطاعون بعد الآن، وأنا مصدق بفرح لذلك الهاتف. ستكون رؤية ابنك إيفيلن يكبر أمرًا مبهجًا، وكذلك نضوج عقل كلارا الصبية. نحن كلّ ما تبقّى لهم في وسط هذا العالم الخاوي، وإن عشنا فيجب أن يكون همّنا إسعادهم. من السهل فعل ذلك الآن ذلك لأن طفولة عقولهم لن تنشغل بالمستقبل، ولا بالحاجة الفطرية التي أودعت الطبيعة فينا إلى المحبّة والعاطفة. لا ندري ما سيكون الحال حينها، وقد نصير إلى الموت كذاك الذي يرقد في قبره الجليدي، قبل ذلك الحين. ليكن الحاضر شاغلنا، ولنشغل ذهن ابنة أختك العزيزة بما يسرّها. لن يساعدنا المكان الذي نحن فيه الآن، على ما فيه من سموّ وجلال، لإنفاذ تلك الغاية. الطبيعة هنا مثل مصائرنا، عظيمة لكنها مدمّرة، جرداء وقاسية ولا يمكن لها أن تثير

البهجة في ذهنها. لننزل إلى سهول إيطاليا المشمسة. سيحلّ الشتاء قريبا، ليضفي على هذا الخواء ثوبًا آخر من الوحشة. لكنّا سنعبر قمم التلال الشاحبة، ونبلغ الأراضي الغناء الجميلة، حيث سيزين طريقها بالزهور ويثير المناخ البهيج فيها المتعة والأمل».

سعيا لتنفيذ تلك الخطة غادرنا شاموني في اليوم اللاحق. لم يكن من داعٍ للاستعجال في الخطى، ولم يحدث أمر ليغيّر ذلك. أمضينا ساعات طوال في أمور تافهة، ولم نظن أننا كنا نضيع وقتنا. تنزّهنا في وادي سيرفوكس الجميل. أمضينا ساعات فوق الجسر العابر فوق وهد أرفي، والمطلّ على أشجار الصنوبر في سفحه وجدرانه الجليدية. تجوّلنا في سويسرا الحالمة إلى أن دفعنا الخوف من مجيء الشتاء قدما. وصلنا وادي الماوري المؤدّي إلى جبل سيني في أول أيام أكتوبر. يعجزني التعبير عن مدى التردّد الذي انتابنا لمغادرة تلك البلاد الجبلية. قد يكون سبب ذلك انطباع صورة الألب في أذهاننا كحدّ فاصل بين ماضي وجودنا ومستقبله، لذا تعلّقنا بشدة بها لارتباطها بكلّ عزيز. وقد يكون سبب آخر، وهو قلّة الدوافع التي تحدونا إلى الاختيار بين أمرَين، إمّا البقاء هناك راضين بالبقاء على قيد الحياة، أو المُضيّ قُدُمًا إلى مكان أفضل بدلًا من البقاء هناك والتعلّق في الماضي. وكان هذا الأخير خيارنا. شعرنا بأن الخطر قد زال، وأننا سنحيا لبعضنا. كان التفكير في ذلك الأمر مثيرًا لمشاعر البهجة والألم، مثيرًا للدمع في

الأعين ومرجفًا لخفق القلب. كنا أوهن من ندف الثلج النازلة في النهر، مع ذلك سعينا لتميز حياتنا القصيرة بالسعادة. هكذا ترنحنا بسعادة على شفير الهاوية! في جلوسنا أسفل الصخور الهاوية، بجانب الشلالات وقرب الغابات العتيقة عتق الجبال. فوق مزيج الخضرة والشمس، حيث يرعى الماعز وتستلقي السناجب غير جافلة منها، نغني لسحر الطبيعة ونشرب من جمالها الخلاب. كنا سعداء في كون خاوي.

لكن سقى الله أيام السعادة الحقة، حين كانت الأعين تحدّث بعضها، وتجيب صوتي أصوات أعذب من نغم أغصان الصنوبر أو خرير الجداول. أيام مشبعة بالبهجة ورفقة الأحبّة. أيام أعجز عن نسيانها. مرّي بذاكرتي عليّ أفنى بك. ها هو دمعي المدرار يبلّل أوراقي، وها هي قسماتي تقلّصت ألمًا من ذكراك. دمعي يسيل وشفاهي ترتعش وحيدًا، بينا تدوي صرخاتي في الجوّ غير مسموعة. خذيني يا ذكريات البهجة لأسكن في ساعاتك الطويلة!

عبرنا الألب وانحدرنا إلى إيطاليا، وقد اشتدّ البرد علينا. جلسنا إلى طعامنا مع مطلع الشمس، أجلينا الحزن عنا بالمزاح والنقاشات الفكرية. مشينا يومنا على مهل وفي أذهاننا وجهتنا، غير أننا لم نبال متى نصلها. مر الوقت سريعا بالأحاديث وتسلسلها، فلمع نجم المساء وأبرزت شمس الغروب البرتقالية الأرض العزيزة التي تركنا. ليتنا عشنا هكذا إلى الأبد! ما سيكون مصيرنا لو كنا الأحياء الوحيدين الباقين في هذا

العالم؟ فضل كلّ واحد منا أن نبقى معًا إلى النهاية على العيش وسط جمع من بشر لا نعرفهم. كان ذلك عزاءنا لأنفسنا، وما هو علينا ما نحن فيه.

كانت بهجتي وأدريان في القيام على كلارا، التي أسميناها، نحن خدامها المطيعين، ملكة العالم. حين كنّا نصل إلى مدينة ما كان أول همنا أن نجد لها أرفع مسكن، نحرص على ألا يكون فيه أيّ أثر فظيع من ساكنيه السابقين، وأن نوفّر لها احتياجاتها وطعامها بكل حنان. سايرتنا كلارا في لعبنا ذاك بمرح طفولي. كانت مهمّتها الرئيسة الاعتناء بإيفيلن. لكنها كانت تسلّي نفسها بالتزيّن بالثياب الفاخرة والأحجار الكريمة، لتكون بالمنزلة الملكية اللائقة. جعلتها حيوية الشباب تعيش تلك الأجواء قلبًا وقالبًا.

قررنا أن نمضيَ الشتاء في ميلان، لكونها مدينة كبيرة ومترفة وفيها خيارات عديدة للسكن. جاوزنا الألب وخلفنا غاباته الكبيرة وجباله الضخمة وراء ظهورنا. دخلنا إيطاليا الباسمة. نمى العشب والحنطة مختلطين في حقولها، وألقت الكروم أغصانها المثقلة فوق أشجار الدرار. هوى العنب مفرط النضج إلى الأرض، أو ظلّ متعلّقا بلون بنفسجي أو أخضر لامع بين الأوراق الحمر والصفر. قامت سنابل الحنطة فارغة جرّاء إفراط الريح لحبّاتها. سقطت أوراق الأشجار مع أغصانها، طغت الحشائش على ضفاف الجداول، واسودّت بعض حبّات الزيتون بعدما كانت محمرة اللون. على كلّ تلك الوفرة إلا أن

الفقر للأسف كان سمة تلك الأرض الساحرة. في البلدات الصامتة زرنا الكنائس المزيّنة بالصور واللوحات الفنية أو مجاميع التماثيل. في تلك الأجواء المعتدلة عاثت الحيوانات في تلك الأماكن الجميلة، وجفلت بصعوبة من حضورنا الذي كان منسيّا. تلتفتُ الثيران البيض إلينا ثم تمشي على مهل بجانبنا. وقد يُحدث خروف ما ضجّة في إحدى الغرف التي كانت مسكنا للجميلات من قبل ثم يجفل منها، ليمر من جانبنا ثم ينزل على درج الرخام ويخرج إلى الشارع، قبل أن يدخل في أول باب مفتوح، معلنا ملكه غير المنازع لحرم مقدّس أو لقصر ملكي. لم تعد تلك المناظر تدهشنا. كانت القصور مقابر تفوح منها رائحة العفن. كان للطاعون أثرٌ غريبٌ على الناس، فقد دفع ذوات الأصل والترف للفرار إلى الحقول الباردة الرطبة والأكواخ الخاوية. بينما مات الفلاح أو السائل المعدم في القصور فوق سرر الحرير أو السجاد هندي النسج.

وصلنا إلى ميلان واتخذنا من قصر نائب الملك منزلنا لنا. هناك قسمنا اليوم والمهام، وحدّدنا لكل شخص وساعة شغلا. في الصباح ركبنا إلى الريف المجاور وجلنا بين القصور بحثا عن اللوحات والتحف. في المساء كنا نجتمع للقراءة والحديث. كانت الكتب التي جرؤنا على قراءتها قليلة. قليلة هي الكتب التي لم تمزّق عنا تلك الحياة التي رسمنا لوحدتنا، بأن تذكّرنا بأمور ومشاعر لن نعيشها مجدّدا. قرأنا رسائل الماورائيات، الجائلة بعيدا عن الواقع والغارقة في عالمها المصطنع. شعرا

لشعراء من عصور سحيقة، فكانت القراءة عنهم كالقراءة عن أتلانتا أو المدينة الفاضلة. أو الكتب المتحدّثة عن الطبيعة فقط. لكن أمضينا معظم وقتنا في الأحاديث.

بينما كنا في استراحتنا تلك ماضين إلى الموت، مر الوقت كعادته. كحالها الأبدي ظلّت الأرض في دوران في مسارها السماوي بلا حيد. خرج الجرم السماوي الوهّاج الفائق الجبال عظمة، والمشرق على غمر الأمواج، من سطوة برج الحوت والجدي البارد، ودخل حمى الثور والجوزاء المشرق. حينها انبثقت روح الجمال من سباتها الشتوي. حلقت بجناحين خفّاقين وأحاطت الأرض بحزام أخضر، لاعبة فوق البنفسج تارة ومختبئة بين أوراق الأشجار الفتية تارة أخرى، أو ماشية بخفّة على الجداول المتلألئة بنور الشمس. انقضى الشتاء وانقطع المطر. أزهرت الأرض وغردت العصافير في الأرجاء. أثمرت أشجار التين ونشرت الكروم عبقها.

لكن كيف لنا نحن البائسين أن نفرح بقدوم هذا ذلك الفصل البهيج؟ أملنا أن لا تكون ظلال الموت جائلة في الأرجاء. نظرنا بعضنا إلى وجوه بعض بأعين متسائلة، ولم نجسر على الإيمان بزوال الخطر. حاولنا التكهّن بمن سيكون الناجي الوحيد من بيننا. عزمنا أن نمضيَ الصيف عند بحيرة كومو، وأن ننطلق من هناك ريثما يبلغ الربيع أوجه ويذوب الثلج من قمم التلال. على بعد عشرة أميال من كومو، في سفوح المرتفعات وعلى ضفاف البحيرة، كان هناك قصرٌ يسمّى بلينيانا، ذلك أنه بجانب نبع

مسجّل مواعيد المدّ والانحسار بأحرف بلينيوس الأصغر. كان القصر خرابا تقريبا إلى العام ٢٠٩٠ حين اشتراه نبيل إنجليزي وزوّده بكل أساليب الترف والفخامة. زُيّنت قاعتان كبيرتان بمنسوجات رائعة وكانت الأرض من رخام. كلتا القاعتين كانتا تؤديان إلى بلاط ذي جانبين، أحدهما يطل على مياه البحيرة الزرقاء، والآخر يطلّ على الجبل الذي انبجس جانبه عن النبع الهادر المشهور. تزيّنت المرتفعات بالريحان وحزم من النباتات العطرية، بينما ارتفعت أشجار السرو العالية مشيرة إلى السماء. وزين شقوق التلال نموّ أشجار الكستناء فيها. أقمنا ذلك الفصل في هذا المكان. كان لدينا مركب شراعي صغير أبحرنا فيه، حينا متوسطين الأمواج وحينا جانحين إلى ضفاف البحيرة الصخرية المغطّاة بالشجيرات المغطّسة لأوراقها في الماء، والمنعكسة على صفحتها القاتمة. أزهرت أشجار البرتقال هناك وغنّت الطيور أجمل الألحان؛ وخرجت الأفاعي من بعد البرد إلى الربيع لتنعم بدفء الشمس فوق الصخور.

ألم نكن سعداء في ذلك المنزل الفردوسي؟ أحسب أننا كنا لنهنأ في ذلك المكان لو أنّ روحا نفثت فينا النسيان. حيث غيبت الجبال شديدة الانحدار ومستحيلة العبور خراب العالم عن أعيننا. ولو كلّفنا أذهاننا قليلا من الجهد لخُيّل لنا أنّ المدن لا تزال تضجّ بضوضاء ساكنيها، وأنّ الفلاح لا يزال يحرث حقله، وأننا إنما اخترنا عزلتنا هذه طوعًا لا كَرها.

لم يستمتع أحدًا منّا بجمال تلك المناظر بقدر كلارا. قبل

أن نغادر ميلان طرأ تغيّر على عاداتها وسلوكها. فقدت مرحَها وكفّت عن اللعب وصار لباسها أقرب للباس الراهبات. كانت تجتنبنا وتبتعد بإيفيلين عنا في إحدى الغرف أو الأنحاء النائية. لم تكن تقضي وقت فراغها معه بالمرح السابق نفسه، بل كانت تكتفي بالجلوس ومراقبته بعينين دامعتين وابتسامات فاترة، دون أن تنبس بأيّ شكوى. كانت تقترب منا بحياء متجنّبة ملاطفتنا، ولم يزل عنها حياؤها إلا حين كنا نتحدّث في أمور فكرية سامية. ازدادت حسنا كزهرة زادها نسيم الصيف تفتّحًا لتطلق جمالا مفرطا. تورّدت خدودها وبدت ونمت حركاتها عن عذوبة فائقة. زدنا من اهتمامنا بها وحرصنا عليها. فقابلت ذلك بابتسامات شاكرة لمعت من ثغرها كلمع الشمس على وجه الأمواج في شهر أبريل.

كان إيفيلين محلّ اهتمامنا المشترك معها. كان ذلك الصغير العزيز بهجتنا وسعادتنا بما يفوق الوصف. كان في روحه المرحة وبراءته وجهله بالمصائب بلسمًا لنا، نحن الذين مزّقت شدة الحزن مشاعرنا وأفكارنا. كان مهمة الجميع إسعاده وملاطفته وتدليله. سُرت كلارا التي عدّتْ نفسها أمًّا له بما رأت منّا من حنان تجاهه. أمّا بالنسبة لي، فقد رأيت في وجهه اللطيف بعثا لنقاء وجه وجمال عيني محبوبة قلبي وفقيدتي الغالية آيدرس. كان قريبا إلى قلبي حتّى في أشدّ اللحظات ألمًا. حين كنت أضمّه إلى صدري، كنت أشعر بأنني أضمُّ جزءًا حيًّا منها في أيام شبابها الضاحك.

اعتدت وأدريان على الإبحار يوميا في قاربنا الشراعي للبحث عن الطعام في الريف المجاور. نادرا ما كانت كلارا وإيفيلين يذهبان معنا، لكن ساعة إيابنا كانت أمرًا مفرحًا. يُفتّش إيفيلين حقائبنا بحماسة طفولية، وكنا دائما ما نحضر هدايا جديدة لصاحبنا اللطيف. اكتشفنا كثيرًا من الأماكن الساحرة ذات المناظر الخلّابة، حيث كنا نذهب مساء لزيارتها. كانت رحلاتنا البحرية بالغة الروعة. شققنا أمواج البحيرة بدفع من الرياح، ولمّا كان التفكير يشغلنا عن الكلام كنت أعزف على كلارنيتي، فتنعشنا أصداؤه وتذهب الهمّ عنا. كانت كلارا تعود أحيانا إلى سابق طباعها بالمزاح والمشاركة في الأحاديث، وعلى كون قلوبنا آخر أربعة قلوب في العالم، فقد كانت تلك القلوب سعيدة.

عند عودتنا في أحد الأيام من بلدة كومو بقارب محمل، توقعنا أن تكون كلارا وإيفيلين في انتظارنا عند المرسى. فوجئنا لما رأينا المكان خاليا. لم أتوقع أن يكون سبب ذلك شر قد وقع، وفسرت الأمر على أنه مجرد غياب عرضي. أما أدريان فلم يكن كذلك. أخذه خوف ورعدة مفاجئين، صاح بي بشدة للاستعجال إلى المرسى، ولما اقتربنا قفز من القارب إلى الماء. تسلق الضفّة شديدة الانحدار وركض في ممر الحديقة الضيّق. لحقت به دون تأخير. كانت الحديقة وساحتها خاليَين، وكذلك المنزل الذي فتّشنا جميع غرفه. صاح أدريان مناديا كلارا بصوت عالٍ، وهمّ بالانطلاق في الممرّ الجبلي القريب

حين انفتح باب كوخ صيفي في الحديقة ببطء. أطلّت كلارا منه ولم تتقدّم نحونا، بل استندت إلى عمود بوجه شاحب وجزع شديد. ركض أدريان نحوها هاتفًا بسعادة وضمّها بفرح بين ذراعيه. انسحبت من حضنه وعادت إلى الكوخ دون أن تنطق بأيّ كلمة. لم تعنها شفاهها المرتعشة ولا قلبها اليائس على التعبير عن حزنها. أصيب إيفيلين المسكين بحمّى مفاجئة أثناء لعبه معها، ويرقد الآن خدرا صامتًا على سرير صغير في ذلك الكوخ.

تناوبنا على مراقبة الطفل المسكين بلا انقطاع أسبوعين كاملين. كانت صحته في تدهور ممّا أصابه من الحمّى النمشية. حوى جسده الضئيل وقسمات وجهه بذور رجل سيحيط بالعالم. كانت أحلام الرجال الطافحة بالطموح لتجد في قلبه الصغير مسكنا، لولا أن نبضه مسرع نحو النهاية. لو اشتدّ عوده لأنجزت يداه أعمالا من الجمال والبأس، لكنه فاتر الأطراف واهن القوة الآن. كانت قدماه الموردتان الناعمتان لتطأ بحزم الرجولة غابات وأحراش الأرض. لم تكن تلك الأفكار ذات نفع، فقد صرعه المرض وسجاه خائر العقل والقوى، منتظرا دون مقاومة للضربة القاضية.

قمنا على رعايته... ولمّا اشتدّت عليه الحمى لم نحدّث أو ننظر إلى بعضنا، بل اكتفينا بمتابعة صعوبة تنفّسه وخفوت جدوى الحياة في وجهه، وأثقال الموت لأجفانه. سيكون قولي مبتذلا لو قلت بأن الكلمات تعجز عن وصف ذلك الألم. لكن

كيف للكلمات أن تصف ذلك الألم الذي يهزّ أعماقنا. ذكرت بأن تلك المرحلة كانت أسبوعين قضيناها في مراقبة مرض الطفل. قد تكون عدة الأيام ما ذكرت، ففي الليل كنا نتعجّب من انقضاء يوم آخر، على شعورنا بأن كل ساعة كانت دهرا لا ينقضي. تناوبنا ليلا ونهارا مرات لا تحصى. كنا ننام بصعوبة ولم نغادر غرفته، إلا حين كان وخز الحزن يغلب علينا. فكان أحدنا يبتعد عن البقية حينًا؛ ليخفي دمعه ونشيجه. حاولنا جاهدين أن نخرج كلارا من حالها المثير للشفقة. جلست عنده ساعة تلو الأخرى تنظر إليه وتسوي وسادته بلطف، وحين كان قادرا على الابتلاع كانت تتولّى أمر سقايته. حانت ساعة موته أخيرًا وتوقّف الدم في عروقه. انفتحت عيناه ثم انغلقتا مجدّدًا، غادرت الروح جسده دون تشنّج أو تحشرج.

سمعت بأن منظر الميت حجّة للمادّيين في اعتقادهم. أمّا أنا، فقد شعرت خلاف ذلك. أكان ذلك الجثمان الهامد طفلي؟ كان طفلي يبتهج لملاطفاتي، يكسو صوته معاني أفكاره، وابتسامته قبس من روحه التي يشرق بها وجهه. التفتُّ عن صورته الزائفة تلك إلى ما كان عليه حقا. خذي أمانتك أيتها الأرض! خذي إلى الأبد الجسد الذي منحت. أمّا أنت يا طفلي الحبيب، فحال روحك بين أمرين، إمّا قصدها نزلا أفضل أو سكنا في قلبي إلى أن أموت.

دفناه أسفل شجرة سرو عند قاع الجبل. ثم قالت كلارا: «إن أردتم حياتي فخذوني بعيدا من هنا. شيء ما يهمس لي

في هذه المناظر الخلّابة من أشجار وتلال وأمواج، أن غادري جسدك وصيري منّا. أتوسّل إليكم خذوني بعيدا».

هكذا ودعنا قصرنا ذاك وظلاله الوارفة في الخامس عشر من أغسطس. سلمنا على قبر إيفيلين أولا ثم انطلقنا بقلوب حزينة قاصدين روما.

الفصل التاسع

هل أشرفت على النهاية؟ نعم! ما هي إلا خطوة أو اثنتين على هذه القبور قريبة العهد، ليبلغ هذا الطريق المتعب نهايته. هل أستطيع اتمام مهمّتي؟ هل أستطيع خطّ كلمات وافية بتلك النهاية العظيمة؟ انهضي أيتها الكآبة السوداء وانفضي عنك وحدتك المظلمة! اجلبي معك من الجحيم ضبابا قاتما، علّه يمتصّ ضوء النهار. اجلبي أنفاسًا محمّلة بالآفات والطواعين، علّها تنفذ إلى عروق الأرض فتملأها فسادًا، كي لا ينبت فيها زرع ولا يثمر فيها شجر وتجري أنهارها بالقيح. لتنهدّ الجبال الخالدة ويفقد الهواء الطيب الذي يلفّ الأرض قدرته على مد الحياة. افعلي ذلك يا وجه الحزن وقوته، بينما أكتب وتقرأ الأعين هذه الورقات.

ومن سيقرؤها؟ حذار يا ابن العالم المبعوث من جديد. حذارِ أيها الكائن الطيب، ذو القلب البشري، يا من لم يشقه الهمّ ولم يغضن جبينه الزمن. حذارِ من أن يجفّ الدم في عروقك وتصير خصلك الشقراء إلى البياض، وتحال ابتساماتك العذبة إلى تجاعيد جامدة! عسى ألّا تشرق شمس على هذه الأوراق، وليكن الدمار والحزن والموت مصير كاشفها. أقصد شجرة سرو ليكون نحيب أغصانها نغما ملائما. أو كهفا عميقا في أغوار الأرض المظلمة، حيث لا ضوء يبلغ إلا ما كافح

للوصول من شق صغير، ليسم صفحاتك بلون الموت الأحمر.

يعصف ارتباك شديد بذهني الرافض لتدوين سير الأحداث. أحيانا تشرق ابتسامة صاحبي الرقيقة أمامي، فيخيل لي أن نورها يملأ الخلود، ثم يدهمني ألم الموت من جديد.

غادرنا كومو، ونزولا عند رغبة أدريان الملحة ممرنا بالبندقية في طريقنا إلى روما. كان هناك شيء جاذب للإنجليز على نحو مميز لتلك المدينة الواقعة على أرض محاطة بالمياه. لم يرها أدريان من قبل. أبحرنا في قارب عبر نهري بو وبرينتا، ولمّا كان الحر شديدا، كنّا نتوقّف للاستراحة في القصور المجاورة أثناء النهار، لنتابع إبحارنا في الليل حين تستر الظلمة وحدتنا وتجعلها أقلّ وضوحا. تناغمت أصوات الرياح الدافعة لشراعنا، حفيف الأشجار وخرير المياه، أسفل ضوء القمر الذي أنار الأمواج المنشقة عن قيدوم قاربنا. طرحت كلارا عن نفسها الصمت بعدما تملكها الحزن المفرط وقتًا طويلًا، واستقبلت اهتمامنا بها بوجه باسم. ولما كان أدريان يتحدث ببلاغة شعرية عن الشعوب المجيدة الهالكة، وجمال الأرض ومصير البشرية، كانت تحبو إليه لتنصت إلى حديثه مستلذّة به. نفينا عن أحاديثنا ذكر موتنا، وحاولنا الكف عن التفكير بذلك قدر استطاعتنا. وقد يعجب المرء ممّن سكن المدن وعاش بين الحشود من مدى نجاحنا. فكما يملأ ضوء الشمس زنزانة الحبيس رويدا رويدا، حتى يشعر الحبيس بأن شمس الرابعة معه في الزنزانة، كذلك كنا؛ ثالوثا صغيرًا في أرض خواء ملأنا حياة

بعضنا حتى كنا كالشعوب. كنا كالأشجار التي انحلت جذورها فاعتمدت مستندة بعضها على بعض في وجه عواصف الشتاء. هكذا أبحرنا فوق نهر بو، نائمين مع غناء الزيز ومستيقظين مع النجوم. دخلنا تفريعة برينتا الضيقة ووصلنا إلى ضفاف لاغونا وقت الشروق في السادس من سبتمبر. ارتفع الجرم الوهاج ببطء من خلف قبابها وأبراجها، وألقى شعاعه على وجه المياه الشفافة. تناثرت زوارق محطمة وقلة سليمة على شاطئ فيوسينا. ركبنا أحدها واتجهنا إلى ابنة البحر الثكلى، الجاثية وحيدة مهجورة فوق تلك الجزيرة، ملقية وجهها إلى جبال اليونان البعيدة. جدفنا بروية إلى أن دخلنا القنال الكبير. انحسر المدّ عابسا عن أبواب البندقية المكسرة وأروقتها الخربة. غطّت الطحالب وأسماك البحر رخامها المسوّد، بينما شوّهت سبخات الملح أعمال الفن النادرة التي زيّنت الجدران، وانطلقت النوارس محلّقة من النوافذ المهشّمة. في وسط ذلك الخراب المروع لصروح عظمة الإنسان، أكّدت الطبيعة هيمنتها وأشرقت بجمال ازداد بتناقض المشهد. تحركت المياه البراقة بصعوبة، بينما شكلت الأمواج مرايا متعددة لوجه الشمس. امتدت السماء الزرقاء على مد البصر، صافية راقة لا يكدرها قارب، كأنها تدعونا إلى ترك الأرض المشوّهة بالدمار واللجوء إلى سكونها من الحزن والخوف.

نظرنا إلى دمار تلك المدينة المنكودة أسفل منّا من أعلى برج سان ماركو، ثم التفتنا بقلوب مشمئزة إلى البحر الذي لم يظهر

خرابا ولا صرحا مدمّرا. حلّ المساء سريعًا. غربت الشمس بهدوء ووقار خلف قمم جبال الأبنينني الضبابية، واصطبغت الجبال المقابلة للشاطئ بألوان الغسق الذهبية الوردية. قال أدريان: «تلك البلاد المخضّبة بآخر الأمجاد هي اليونان». اليونان! ضرب ذلك الاسم وترا في قلب كلارا. فراحت تذكّرنا بإلحاح بأنّا وعدناها بأخذها إلى اليونان، حيث قبر والديها. لم نذهب إلى روما؟ أي شيء سنفعل هناك؟ نستطيع أخذ أيّ من السفن الموجودة هنا، ونوجّه دفّتها إلى ألبانيا.

اعترضت متعلّلا بخطورة البحر، وبعد الجبال التي نرى عن أثينا مسافة يستحيل قطعها مع خراب الأراضي فيها. رد أدريان الذي أطربه طلب كلارا تلك الاعتراضات. قائلا بأن الموسم كان مواتيا للإبحار، فالرياح الشمالية الغربية ستأخذنا عبر الخليج. ثم قد نجد في أحد الموانئ المهجورة زورقا شراعيا ملائما للإبحار قرب الساحل. من هناك نبحر قريبا من الساحل اليوناني، وريثما نتجاوز كورنث فسنجد أنفسنا في أثينا، دون كثير عناء. بدا ذلك كلاما طائشا بالنسبة لي. لكن البحر المتلألئ بدا ساكنا وآمنا. كان رفاقي الأعزاء متحمسين ومصرين، وحين قال أدريان: «مع أنك لا توافق، اقبل لأجل خاطري»، لم يعد بوسعي الرفض. ذلك المساء اخترنا سفينة بدت ملائمة لمغامرتنا. رتبنا الأشرعة وحبالها، وبتنا في أحد آلاف قصور المدينة، وقد اتفقنا على الإبحار فجر اليوم اللاحق.

حين تهب النسائم التي لا تعكر صفو الماء

يفارقني حبُّ اليابسة

وتغري ابتسامات البحر الساكن العميق

عقلي المضطرب

استفتح أدريان إبحارنا بهذه الأبيات، ونحن نجدّف مغمورين بضوء الشمس الصافية، وعابرين من اللاغونا وشاطئ ليدو إلى البحر. هممت بأن أضيف مكملا لتلك الأبيات:

لكن حين يهدر البحر ويزبد

ويتفجر موجا غاضبا...

قاطعني رفاقي قائلين بأن تلك الأبيات نذير شؤم. ودعنا المياه الضحلة بمزاج فرح وأطلقنا أشرعتنا في البحر لتتلقفنا الرياح المواتية. ملأتهما بهجة الصباح بينما غمر نور الشمس الأرض والسماء والبحر. انشقّت مياه البحر الساكنة أمام قدومنا، وقبلت بدلال جوانب السفينة معلنة ترحيبها بخرير جميل. مع غياب اليابسة لفتّنا الزُّرقة من كلّ جانب، فالبحر أسفل منا وفوقنا توأمه الرائق. كانت أذهاننا هادئة ساكنة كالبحر والسماء من حولنا. بدت الأرض قبرا كئيبا بالمقارنة مع البحر الذي لم يشبه كدر. كأن جبالها وصخورها العالية لم تكن إلا شواهد، أشجارها نبتت لتزين به القبور، وجداولها وأنهارها دموع على رحيل الإنسان. وداعا أيتها المدن الخربة، أيتها

الحقول التي امتزجت فيها الحنطة والأعشاب البرية، وإلى كل أثر من جنسنا المندثر. أودعناك أنفسنا أيها البحر، احفظنا فوق مياهك الأبدية.

أمسك أدريان بالدفة وتوليت أمر الحبال. دفعت الرياح القادمة من الخلف شراعنا وأبحرنا بسرعة فوق الغمر. خفتت الرياح عند الظهيرة وأبقانا نفحها اليسير بصعوبة على خطّ سيرنا. كنا بحارة كسالى في جوّ صحو، غير مبالين بالقادم من الساعات. تحدّثنا بفرح عن إبحارنا الساحلي وعن وصولنا إلى أثينا. ستتّخذ إحدى جزر السيكلاديس سكنًا لنا، بين شجيرات الريحان والربيع الدائم، حيث ينعشنا نسيم البحر الصحي.

انحدرت الشمس من عليائها وتدلّت نحو مغربها في السماء الصافية. حسبت أثناء استلقائي في السفينة ونظري إلى السماء أني رأيت خطوطا بيضاء في كبد السماء. كانت شفافة إلى درجة أني شككت بوجودها، وأنها محض خيال. فجأة دبّ بي الرعب أثناء نظري. وقفت وركضت إلى المقدمة، وما إن وقفت حتى ارتفع شعري بلطف عن وجهي. ظهر خط قاتم في الأفق الشرقي وتقدم سريعا تجاهنا. ما إن أشرت إلى أدريان بوجه مخطوف، حتى تبع إشارتي خفقٌ للشراع وميل للسفينة. سرعان ما تلبّدت الغيوم فوقنا وانحدرت الشمس حمراء إلى مغيبها. ازبدّ البحر وراح يرفع سفينتا وينزلها على مياهه الغاضبة.

تقاذفت الأمواج فلكنا الصغير وقرعتنا الرياح. تلاقت في الأفق الحالك غيمتان هائلتان كانتا تسبحان في اتجاهين معاكسين. تطاير البرق منهما ودوى الرعد. أجابتها غيوم من الجنوب، وما إن لمع برقها في السماء حتى بدت لنا أكوام الغيوم المخيفة. يا ربّاه! وحيدون نحن الثلاثة وحيدون! لا بشر سوانا في البحر، لا بدَّ وأنَّ الهلاك مصيرنا!

مرت لمحة من يأس على ملامح وجه أدريان العزيز، إلا أنه تمم بجأش رابط قائلا: «ستكتب لهم النجاة!» غلب الهلع البشري على كلارا فحبت قريبا من أدريان. نظر إليها بابتسامة مشجعة وقال: «أتخافين يا فتاتي الغالية؟ لا تخشي، سنبلغ الشاطئ قريبا!».

لم أستطع تمييز تعابير وجهها بسبب الظلام، لكن كان صوتها صافيا عذبا حين أجابت: «لم أخاف؟ لا البحر ولا العواصف قادرة على ضرنا، إن لم يأذن القدير لها بذلك. ولست أخشى في هذه العاصفة أن أنجو دونك، فإن كان موت، فهو جامع لنا».

أنزلنا أشرعتنا إلا قليلا، حتى إذا ما شعرنا بسنوح الفرصة أطلقناها مجددا لنندفع مع الرياح إلى الشواطئ الإيطالية. كان الظلام حالكا ورأينا بصعوبة قمم الأمواج الهائلة، حين كان يحيل البرق الليل نهارا ليجلي لنا الأهوال، ثم يعود الظلام مطبقا. كنا في صمت حين تنبه ربابنا أدريان إلى ملاحظة

مشجّعة، بأن سفينتنا سارت مطيعة للدفة بشكل عجيب، وسبحت فوق الأمواج وكأنها ابنة للبحر الذي كان يداريها عن الغرق.

جلست في المقدمة لأراقب سيرنا حين سمعت الأمواج تتفجر غضبا. كنا قريبين من الشاطئ حتما. صحت: «اقتربنا!»، ولمع برق في الوقت ذاته منيرا لنا الفضاء ومظهرا لنا شاطئا مستويا أمامنا. عاد الظلام من جديد وعاد الرعب معه. كنا كمن يرى حمم بركان تقذف في ليل بهيم لتخسف بالأرض أمامه مباشرة. لم نكن ندري ما العمل، فقد أحاطت بنا الأمواج الهائجة من كل جانب، هادرة وقاذفة ماءها الساخط في وجوهنا. بعد عناء كبير ومجابهة للخطر نجحنا في تغيير اتجاهنا مبتعدين عن الشاطئ. حثثت أصحابي للاستعداد لتحطم مركبنا الصغير بأن يربطوا أنفسهم بمجداف أو سارية لتطفو بهم. كنت سبّاحا ماهرا ولطالما أثار منظر الأمواج حماستي، كما تثير أصوات الكلاب المطاردة حماسة الصياد. أحببت الشعور بالأمواج وهي تلفّ جسدي محاولة إغراقي، بينما أتقلّب فوقها يمنة ويسرى. كان أدريان -أيضًا- قادرًا على السباحة، بيد أن جسده الضعيف لم يمكنه من الاستمتاع بذلك ولا امتلاك المهارة العالية. لكن أي سباح ماهر قادر على مجابهة غضب البحر؟ لم تنجح محاولاتي في تجهيز أصحابي، فبسبب الأمواج الهادرة لم نكن قادرين على سماع بعضنا. فضلا عن أن ارتطام الأمواج بمركبنا جعلني أركّز على إفراغه من الماء بأسرع ما أمكن. كنا

نرى أحيانا ضرب برق أحمر ملتهب في البحر وسط الظلام الذي كان يلفّنا. وفي بعض المراحل كانت الغيوم تصب ماءها صبا في وعاء البحر الهائج الذي كان يعلو ليلقاها. اقتلعت العاصفة الحافة العليا من سفينتنا، وتمزق شراعنا الوحيد إلى خرق محلقة مع الرياح. كسرنا سارية المركب وأفرغناه من كل الحمولة التي فيه. همت كلارا لمساعدتي بإفراغ القارب من الماء، ولما رفعت عينيها لتنظر إلى لمع البرق رأيت في وجهها عجز الخوف عن قهرها. يملك الإنسان من البأس في أوقات الشدة ما يعجز العقل عن استيعابه، مما يتيح لنا تحمل أشد أنواع العذاب بجأش رابط لا يخيل لنا في أوقات الرخاء أننا قادرون عليه. كان قلبي هادئا على نحو مريب. هدوءا يشبه هدوء المقامر، المنتحر، والسفاح، قبل أن يلقى الأول نرده، ويشرب الثاني سمه، ويطعن الأخير طعنة الموت.

مرت ساعات على ذلك النحو. ساعات يشيخ لها وجه الشاب ويشيب لها رأس الوليد. ساعات والفوضى العارمة مستمرة، كل عصفة ريح تفوق قوة سابقتها، ومركبنا الصغير تارة فوق موجة عالية وأخرى في واد بين جبال من الأمواج. هدأت العاصفة لحظة وهدأ البحر نسبيًّا. كان هدوءا خادعا، فقد اجتمعت الرياح كقبضة واحدة ثم عصفت هادرة على وجه الماء الذي ضرب مؤخرة سفينتنا. صرخ أدريان بأن الدفّة قد اقتلعت. فصاحب كلارا قائلة: «هلكنا! انجوا بحياتكم، أنجوا بحياتكم!». رأيت الفتاة المسكينة في ضوء البرق تكاد تغرق

في المياه في قاع المركب. أمسك بها أدريان قبل أن يغمرها الماء، وأسندها بين ذراعيه. انطلقت مقدمة مركبنا عديم الدفة إلى قلب الأمواج التي علت ثم هوت علينا محطّمة سفينتنا. سمعت صراخا وصحت بأننا هالكون. وجدت نفسي في الماء والظلام حولي من كل جانب. حين لمع برق العاصفة لمحت جزءا من السفينة بالقرب مني. تشبثت به بشدة وحاولت البحث عن أصحابي مع كل إضاءة من البرق. حسبت أنني رأيت أدريان غير بعيد عني، ممسكا بمجداف. قفزت من مكاني بطاقة تفوق البشر، وكابدت الأمواج محاولا الوصول إليه. لمّا فشلت في ذلك، نهضت في غريزة البقاء، وتأهّبت نفسي للقتال كأني مقبل على عدو. تلقيت ضربات الأمواج ودفعت ما استطعت منها بيدي، كرجل يحاذر مخالب أسد إلى صدره. وإن غشيتني موجة كنت أنهض فوق أخرى، تعلو شفاهي ابتسامة تحدٍّ.

لم نبتعد كثيرا عن الساحل منذ أن حملتنا العاصفة إليه. مع كل لمع للبرق رأيت الأرض غير بعيدة عني. لكن لم أكن أقترب منها شيئا، فكل موجة كانت تحملني بعيدا إلى قلب البحر. تارة أشعر بقدمي تطأ الرمال وأخرى أكون فيها في مياه عميقة. بدأت ذراعي بفقدان قوتهما وخارت أنفاسي. مرت برأسي آلاف الأفكار الهاذية. أذكر منها الآن أن شاغلي الرئيس كان لذة الشعور لو أنني أرخيت رأسي على أرض هادئة، حيث لا أمواج تصفق جسدي الضعيف، ولا تقرع أصواتها سمعي. أحسست بالرمال تحتي فجأة من جديد. مشيت حتى قمت

مستقيما، ثم طرحتني الأمواج من جديد. تمكنت من التمسك بصخرة أتاحت لي شيئا من الراحة. ثم ما إن رأيت الأمواج تحسر انطلقت راكضا حتى وقفت على الرمال التي لا يغمرها الماء، وهويت بلا حركة على الطحالب التي كانت منتشرة فوقها.

لابد وأنني ظللت مستلقيا بلا وعي وقتًا طويلًا. فقد أثار ضوء الفجر غثياني حين فتحت عيني. تغيّر الجو أثناء ذلك، فقد ولّت الغيوم مسرعة بعيدا، وانفرجت فيها فسح بانت منها زرقة السماء. ثم سال النور من الشرق، من خلف أمواج البحر الأدرياتيكي، مغيّرًا اللون الرمادي إلى صبغة وردية، وما إن أشرقت الشمس بأكملها حتى عمّ شعاعها الذهبي البحر والسماء.

كنت في حالة من الخدر لما أفقت. كانت حواسي يقظة إلا أني كنت فاقدا للذاكرة. لم تدم نعمة النسيان تلك طويلا. ما إن تذكرت ما حصل حتى هممت بالقيام، بيد أن أطرافي لم تطاوعني. خارت ساقاي وفارقت القوة عضلاتي. كنت على يقين بأني سأجد واحدا من أعزائي وقد لفظه البحر إلى الشاطئ مثلي، غائبا عن الوعي. حاولت جاهدا أن أعيد القوة إلى جسدي. عصرت الماء من شعري، وسرعان ما غمرتني الشمس بدفء معافي. مع عودة النشاط إلى جسدي أخذ ذهني بالإفاقة تدريجيا ليقدّر مدى الدمار الحاصل. ركضت إلى حافة الماء وصحت بأسماء رفاقي. ابتلع البحر صيحاتي وأجابني

بهديره القاسي. تسلقت شجرة قريبة إلا أني لم أر إلا أشجار الصنوبر الحافة للشاطئ والبحر الممتد في الأفق. عبثا عدت وسعيت في البحث على طول الشاطئ. لم أجد سوى السارية التي قطعنا، وحبالا متشابكة وبقية من الشراع. كنت أقف أحيانا لأعصر يدي ألما. وجهت الاتهامات للأرض والسماء، للكون وللخالق الذي قدر سيره. استلقيت على الرمال من جديد، وسمعت في صوت الرياح شبها بصراخ البشر، فنهض في من جديد أمل كاذب. لم أجد أي مركب في الأرجاء لأبحر به في مياه البحر المتوحش، علي أجد بقايا من فقدت لأحتضنها وأشاركهم قبرهم.

مر اليوم وأنا على ذلك الحال. كانت كل ساعة كأنها دهر. لم أقتنع إلى ذلك الحين بأني فقدت أصحابي. لم أشعر بنبضي وأعصابي وكل أفكاري بأني آخر من بقي من بني جنسي، وأني الإنسان الأخير!

تلبدت السماء بالغيوم، وهطل مطر خفيف وقت الغروب. قلت لنفسي حتى السماء تنتحب، فلا عيب إذن أن أفنى الإنسان حياته بالدمع. تذكرت قديم الأساطير التي تحكي عن تحول إنسان إلى نافورة أبدية لكثرة بكائه. آه لو كان ذلك حقا! لكان في موتي ارتباط بموت أدريان وكلارا بالماء. ما أعجب الحزن! ينسج نفسه في شيء حولك ويغمره بألوانه حتى لتذكره أينما التفت.

مشيت طويلا في بحثي حتى ابتعدت عن البقعة التي لفظت إليها، فوصلت إلى أحد المنارات القائمة على السواحل الإيطالية. سرني أن أجد ملجأ وأن أرى شيئا من صنع الإنسان، بعدما أطلت النظر في القفار. دخلت المنارة وصعدت الدرج إلى غرفة الحارس. كان القدر سمحا إذ لم يظهر لي شيئا من الفظائع التي حلّت بساكنها القديم. كان السرير عبارة عن ألواح خشبية فوق منصتين من الحديد، نشر فوقها أوراق الذرة المجفّفة. فتحت شهيتي للطعام بعدما كنت غافلا عن جوعي، لما رأيت بسكويتا شبه متعفّن في صندوق مفتوح. أذاني الظمأ الشديد أيضا، لكثرة ما شربت من مياه البحر المالحة وتعب جسدي. سددت جوعي بما وجدت من ذلك الطعام السيّئ، رويت ظمأي ببقية قنينة نبيذ في ذلك المسكن المهجور. ثم تمددت على السرير الوضيع. كانت رائحة أوراق الذرة الجافة عطرا بالنسبة لي، بعدما ملأت أنفي رائحة الطحالب الكريهة. نسيت الوحدة التي كنت فيها. غط جسدي في نوم عميق سريعا. رأيت في أحلامي جميع ما أحن إليه من مشاهد اليابسة. رأيت مزارعي التبن وراعي الغنم يصفر لكلبه ليعينه على جمع القطيع. رأيت صورا وسمعت أصواتا من طفولتي في الجبال، بعدما نسيتها سنين طويلة.

استيقظت من نومي مرعوبا، فقد رأيت البحر قد تحرر من حدوده واقتلع القارات والجبال من جذورها، وما عليها من جداول وغابات وقطعان. غمر الأرض مزمجرا كما فعل

بالسفينة التي حملت آخر البشر. لما أفاقت حواسي من سكرة النوم ضاقت جدران الغرفة بي، وقرع المطر على النافذة الوحيدة. أي رعب ذاك أن تفيق من سبات النسيان ليحيك نحيب قلبك الصامت؛ أن تعود من وهم الأحلام إلى واقع الكارثة الذي لم يتغير! كان ذلك حالي حينها، وإلى الأبد. قد يخف ألم الحزن على المرء أحيانا، بل إن حزني كان يفارقني في بعض الأوقات أثناء النهار لما أجد من متعة من المناظر أو الخيال؛ لكني لا أفيق أبدا إلا ويدي على صدري الذي يكاد ينفجر حزنا، وروحي مغمورة باليأس. كانت تلك أول إفاقة لي في ذلك العالم المقفر. استيقظت وحيدا وراح البحر بترنيمته الجنائزية يذكرني بالبؤس الذي صرت إليه. كان صوته أشبه بالتقريع والسخرية، وكاد الحزن يخنقني. سددت أذني بأصابعي ودفنت رأسي أسفل أوراق الذرة الجافة، ولو أمكنني لنفذت إلى جوف الأرض حتى لا أسمع ذلك الأنين البشع.

لكن مهمتي لم تنقضِ. عدت إلى الشاطئ البغيض من جديد، باحثا بلا جدوى ومناديا بأعلى صوتي علّ الرياح تحمل لي جوابا.

أي كائن مثير للشفقة مفطور القلب كنت! كان منظري كفيلا بمعرفة بؤسي. كان شعري أشعثَ والملح متيبسا على أطرافي. ملابسي ممزقة ومنقوعة بالماء إما من كوني في البحر أو من المطر. أقدامي عارية تنزف من وطأي للأصداف أثناء إسراعي مجيئا وذهابا، كلما خيل لي أن صخرة ما أحد رفاقي.

كنت أقارن نفسي بملك الضياع، روبنسون كروز. فقد كان كلانا بلا رفيق. لفظه البحر إلى جزيرة موحشة، ولفظني أنا إلى عالم موحش. كنت غنيا بما ملكت من الأمور المادية. فلو وجهت خطاي بعيدا عن الساحل المقفر لأدخل ملايين المدن، لوجدت ثرواتها محفوظة لي، من ملبس ومطعم وكتب ومسكن، بما يفوق ما أتيح لكبار الأمراء في سالف الأيام. كل مناخات الأرض متاحة، بينما كان كروز محصورا في جزيرة استوائية، يجد بمشقة سترا من حرها وعواصفها. من كان ليرفض تلك الحياة حيث الملذات الجسدية والفكرية تحت أمره، ويفضل عليها حياة الشقاء والتعب؟ لكن حاله خير من حالي. ففي النهاية لابد أن تمر سفينة تعود به إلى موطنه، لتصير ذكريات شقائه وحكايات يستأنس بها بجانب النار. أما أنا فلا أحد لأقص عليه قصتي، ولست آمل بأن أجد أحدا. يعلم ذلك المغترب يقينا بأن جزيرته الأم قابعة خلف المحيط حيث يعيش آلاف، وأنه يشاركهم نور الشمس كلما طلعت. بينما أنا الوحيد من بني جنسي تحت نور الشمس وضوء القمر. كنت العاقل الوحيد في العالم، وإن أغمضت عيني للنوم لم يكن هناك أحد سواي ليبصر الليل والنهار. مثل هارب من أصحابه، يغشاه الهلع إن رأى أثر خطوة بشرية. كنت لأسجد مقبلا ذلك الأثر لو وجد. كنت لأفرح بصحبة آكلي لحوم بشر الكاريبي، أو أخرق فظٍّ عديم رحمة من أراذل الحضارة. فطبيعته البشرية قريبة لطبيعتي، وهيئته مماثلة لهيئتي. تجري دماء بشرية في عروقنا، ولا بدَّ أن تربطنا وشائج بشرية إلى الأبد. لا أطيق

كوني لن أرى بشريا آخرا أبدا! ولو مرت سنين! أينبغي لي أن أفيق كل يوم بلا أنيس، وأن أمضي الساعات وحيدا يحيط بي الخواء؟ أستمر الأيام تباعا هكذا إلى الأبد؟ لا لا ذلك مستحيل! سأبتعد عن بحر الحزن وأفارق هذا الركن المقفر، حتى لا تتسلّل وحشته إلى روحي. سأمشي في شوارع المدن المعبدة من جديد. سأطأ عتبات مساكن البشر وعلى الأرجح سيثير ذلك في أفكارًا مخيفة، لكنها لن تلبث إلا أن تزول.

دخلت رافينا أقرب البلدات إلى المكان الذي لفظت إليه. قبل أن تغرب شمس اليوم الثاني لهذا العالم الخاوي رأيت كائنات عديدة. رأيت ثيرانا وخيولًا وكلابًا، لكن لم أر بشريا. دخلت كوخا فوجدته فارغا. صعدت سلالم قصر رخامي فلم أسمع إلا صدى البوم. مشيت بهدوء وخفة في البلدة حتى لا أوقظها. وبخت كلبا عكر صفو ذلك الصمت المقدّس بعوائه. لم أصدق أن الأمور كانت كما بدت. لم يكن العالم ميتا، لكنه جنون عقلي. كنت محروما من عمل حواسي، وأسير تحت تأثير لعنة تتيح لي رؤية كل شيء إلا البشر الذين كانوا يؤدون أعمالهم اليومية كعادتهم. كان كل منزل مسكونا بأهله، لكني لم أستطع رؤيتهم. لو استطعت إقناع نفسي بذلك الجنون لكنت أفضل حالا. لكن رأسي المتمسك بتعقله بعناد رفض أن يذعن لذلك الوهم. وعلى محاولتي إيهام نفسي، كنت موقنا بأني آخر من بقي من البشر.

غربت الشمس خلف التلال الغربية. لم أذق الطعام منذ

مساء أمس. على جوعي وتعبي إلا أنني مقت الطعام، ولم أتوقّف عن حرث الشوارع طالما بقي ضوء من النهار. حلّ الظلام وساق كل كائن حي إلى حضن رفيقه إلا أنا. كنت أنسي ذهني عذابه بأن أنهك جسدي بالشغل. فمن بين آلاف السرائر لم أسع إلى سرير وثير، بل اخترت افتراش الرصيف، واتخاذ عتبة رخامية وسادة. جاء منتصف الليل وأغمض النعاس أجفاني عن النظر إلى النجوم اللامعة. هكذا أمضيت ثاني ليلة من وحشتي.



الفصل العاشر

استيقظت صباحا حين انعكس أول نور الشمس المشرقة على نوافذ المنازل الفارهة. غرّدت الطيور جاثمة على عتبات النوافذ والمنازل المهجورة. كان أول ما خطر على بالي لمّا استيقظت أن أدريان وكلارا ميتان. وأني لن ألقى تحية الصباح منهما مجدّدا أبدًا. لن أراهما مرة أخرى. انتزعهم المحيط منّي، اختطف قلوبهم المحبّة من صدورهم، وألقى إلى التلف من كانوا أعز عندي من النور والحياة والأمل.

كنت رويعي غنم أمي حين مَنّ علي أدريان بصحبته. مرّت خير سنين عمري برفقته. أدين له بكلّ ما أملك من مال وسعادة ومعرفة وفضيلة. نلت السؤدد في حياتي منه ومن عقله وخصاله الفريدة، ولولاه لما كنت عرفت ذلك. علّمني كما لم يعلّمني كائن آخر، أنه بوسع الإنسان أن يكون خيّرا نقيًّا. كان منظره وهو يحكم ويقود ويواسي البشرية في آخر أيامها خليقًا بأن تشهده الملائكة.

فقدت غاليتي كلارا أيضًا. آخر بنات البشر، ومن حوت جميع فضائل الأنوثة، التي تغنّى بها الشعراء والرسّامون والنحّاتون بلغاتهم المختلفة. لكن هل يجوز لي البكاء عليها وقد فارقت في شبابها هذه الحياة البائسة؟ كانت طاهرة الروح

والنيّة. كان قلبها عرش المحبّة ومحيّاها الجميل نبي الدهشة الإعجاب الساميَين. حُفظ هذين الفذين من الهلاك في خراب العالم، ليكونا رفيقي في سنة وحدتي الأخيرة. قدرت قيمتهما لمّا كانا معي. كنت مدركًا أنّ كل مشاعر الحنين والمحبّة كانت موجهة لهما. لم أنسَ رفيقة شبابي وأمّ أطفالي، محبوبتي آيدرس. لكنّي رأيت قبسا منها حيا من جديد في أخيها. بعد موت إيفيلين فقدت أعز أثر منها، فأودعت في أدريان كل ذكرياتها. أستنطق أعماق قلبي لعلّي أجد تعبيرا هناك ليصوغ محبتي لأخر فقيدي البشرية. كان صوت أدريان العذب ووجهه المتوهّج كفيلان بتبديد ما ينوبني من الكآبة والقلق. وكذلك كان وجه كلارا الطلق وعيناها الزرقاوان يروحان عنّي. كانا كل شيء بالنسبة لي؛ شمسا تنير روحي، راحة لتعبي، ورقادًا لسهدي. ما أديتهما حقهما بكلماتي العقيمة الباردة. وددت لو أمكنني أن ألفهما بنفسي كشجر اللبلاب، ليكون مصيرهما مصيري. أو أن أتغلغل فيهما لأصحبهما إلى مسكنهما الذي لست أهتدي إليه.

لن أراهما مجددا أبدا، محرومًا من حديثهما والنظر إليهما. أنا شجرة شقّها البرق، لن تلتئم أبدًا. ولن تنال أرواقها التي اقتلعها الرياح لحظة هناء أبدًا. أنا وحيد في هذا العالم، لكن المصيبة ليست في ذلك، بل في فقد أدريان وكلارا.

لم تنفك المشاعر السلبية عن تعذيبي، إلا أنها تباينت في الشدة والأصل بحسب الحال. فقد خفتت حدة ألم فقد أحبائي

مع مرور الوقت، وحلّ محلّها شعور قاتل بالوَحدة. جلت في رافينا لثلاثة أيام، تارة أفكّر في أعزائي الذين استقروا في قاع البحر، وأخرى أنظر بهلع إلى مستقبل وحدتي. مرة ينتابني الهلع من المُضيّ قُدُما وأخرى يلويني فيها ألم جديد مع مرور الساعات.

جلت تلك البلدة الكئيبة لثلاثة أيام، مجيئا وذهابا. أمضيت ساعات أتنقّل من منزل إلى آخر، مصخيا السمع لعلي أسمع خطى وجود بشري. كنت أقرع جرسا أحيانا، فيجلل صوته في الغرف الخاوية ثم يعود الصمت إلى المكان. كنت يائسا يحدوني شيء من الأمل؛ ولم تبرح خيبات الأمل عن إغماد نصلها في جروحي السابقة. شعرت بأني وحش لا يطلب الطعام إلا أن لكزه جوع لا يُطاق. لم أغيّر لباسي أو ألجأ إلى سكن أثناء تلك الأيام. أيام تملكتني أثناءها الانفعالات العصبية وضربات الشمس، أفكار لا تنقطع وليال مؤرقة.

لمّا ازدادت شدة المرض، اجتاحتني رغبة عارمة في الترحال. أتذكّر أنني تركت بلدة رافينا بعد غروب شمس اليوم الخامس، غير قاصد لجهة معيّنة. لا بدَّ أني كنت في مرض شديد. لو نالني شيء من الهذيان في تلك الليلة لكانت ليلتي الأخيرة. ففي أثناء سيري على ضفّة نهر مانتوني نظرت بلهفة إلى تياره، محدثا نفسي بأن خلاصي الأبدي من أحزاني سيكون في مياهه، ولم أجد عذرا لنفسي في تأخري عن القفز فيها لتحميني من سهام الحزن السامة التي مزقتني. مشيت ردحًا طويلًا من

الليل، وقهر الإرهاق الشديد أخيرًا كرهي لمساكن بني جنسي. أبان ضوء القمر لي منزلا ريفيا ذكرني مدخله الأنيق وحديقته المرتبة بإنجلترا. رفعت ملاج الباب ودخلت. كان أول ما قابلني مطبخ وجدته فيه مسترشدا بضوء القمر مواد لإشعال النار. حوى المنزل -أيضًا- غرفة نوم غطّي سريرها بملاءات ناصعة البياض. كان ترتيب الخشب في الموقد يوحي بقرب إعداد وجبة، فكدت أن أتوهّم أني وجدت هنا ما كنت أبحث عنه طويلا، رفيقا لوحدتي وسلاء ليأسي. طردت ذلك الوهم من رأسي، وقلت لنفسي بأن الغرفة خالية وإن كانت مرتبة، ثم رحت أتفحّص بقية المنزل. على إيماني بانعدام ذلك الأمل، إلا أن قلبي كان يخفق بصوت عالٍ كلما وضعت يدي على مقبض باب لأفتحه، ليعود خائبا بعد أن أجدها فارغة. كانت الغرف خالية ومظلمة كالقبور. لذا عدت أدراجي إلى الغرفة الأولى لأرى ما الضيافة التي خلّفها لي المضيف الغائب. قرّبت كرسيًّا من الطاولة وتفحّصت الطعام الذي سآكل. الحق أنها كانت مأدبة موت! كان الخبز مزرقا بالعفن، والجبز صار كومة من غبار. لم أجرؤ على النظر في الأطباق الأخرى. مرّ طابوران من النمل على الطاولة، وكان كل طبق وإناء مغطّى بالغبار وآلاف من الذباب الميت. كانت جميع تلك الأمور دلائل على كذب أملي الواهم. تسارعت الدموع إلى محاجري لما رأيت من استعراض لسطوة الموت. أي شيء فعلت في حياتي ليجري مبضعه في أعصابي وأحاسيسي بذلك الشكل؟ لكن أي شيء ستضيف الشكوى الآن؟ لم يكشف ذلك المنزل حزنا جديدا،

فالعالم خال من البشر لانهم هلكوا. علمت ذلك يقينا، فلم أحاول تكذيب تلك الحقيقة؟ بيد أن الأمل لم يفارقني حتى وأنا في رحم اليأس، كما أسلفت ذاكرا. لذا كان كل تجلّ جديد لتلك الحقيقة المُرّة يفتق جرحا جديدا. معيدا علي ما أحاول إنكاره ومقررا الحقيقة التي لا مغير لها؛ ومذكرا إياي بأني لن أجد خلاصًا من بؤسي هذا، وأني سأعيش هكذا كل يوم وشهر وسنة طالما حييت. لم أجرؤ على تخمين عمري الذي سأعيش. لم أكن في سنٍّ تفتح الشباب، ولا مقبلا على سنّي الشيخوخة، بل كنت في أوج عمري. بلغت السابعة والثلاثين توًّا. أطرافي متماسكة قوية كما كانت أيام ما كنت أرعى الغنم في تلال كمبرلاند. سأبدأ حياتي الوحيدة بتلك المزايا. كانت تلك الأفكار التي شغلت بالي أثناء نومي في الليل.

على كل حال، أعاد النوم الهادئ في ذلك المسكن إلي من النشاط والصحة قدرا فاق ما شعرت به منذ تحطّم السفينة. كان من ضمن المؤونة التي عثرت عليها أثناء بحثي في الليلة الماضية بعض من العنب المجفّف، الذي تقويت به صباحا أثناء خروجي من ذلك المسكن قاصدًا بلدة قدرت أنّها غير بعيدة. بحسب تقديري كانت تلك فورلي. دخلت بسرور شوارعها الواسعة والمغطّاة بالعشب. صحيح أنّ الخراب قد عاث فيها، إلا أنني أحببت دخول الأماكن التي كان بني جنسي يسكنونها. استمتعت بذرع الشوارع واحدًا تلو الآخر، والنظر إلى البيوت قائلا لنفسي بأنها كانت سكنا لأشباهي من قبل؛

وأني لم أكن بائسا طوال حياتي. أبهجني منظر ساحة فورلي والرواق المحيط بها. سعدت لما خطر ببالي أنه لو قدر للأرض أن تمتلأ بالناس مجدّدا، فلن تمحى آثارنا بسهولة، نحن بني البشر البائدين.

دخلت أحد القصور وفتحت باب بهو فسيح. ذعرت لما رأيت! ثم نظرت متحريا من جديد. أي همجي أشعث ممزق الملابس هذا الذي يقف أمامي؟ لم يطل التساؤل.

أدركت أنني رأيت نفسي في المرآة المعلّقة في نهاية البهو. لا عجب من خيبة معشوق آيدرس وأميرها في أن يميّز نفسه، بعد الحالة التي بلغها منظره. كان لباسي الممزق ذاته الذي خرجت به شبه ميت من عاصفة البحر. تدلّت خُصلات شعري يابسة على وجهي، ومن خلفها عيناي السوداوان الغائرتان. شحبت ألوان وجهي لما رأيت وغطت وجهي لحية لم تحلق منذ أيام.

فكرت، لم يجب علي أن أغيّر هيئتي؟ فلا أحياء في العالم، وهذا اللباس الممزّق ثوب حداد أنسب من أناقة حُلة سوداء. هكذا خلصت إلى أنني يجب أن أظلّ هكذا. بيد أنّ بصيصًا من الأمل ظلّ يهمس لي بأن منظري سيثير الرعب حتما بأي شخص سيجدني، حتى وإن لم أسع لإيجاده. هل سيسخر القارئ مني لأني تزيّنت بعناية في سبيل ذلك الوهم؟ أم سيعذر جموح خيال من شارف على الجنون؟ أعذر نفسي بسهولة، فقد

كان الأمل على ضعفه غاليا علي، ومثيرا لشعور من السرور. لذا كنت أستسلم له بسهولة، راجيا به عودة شيء من أيامي السالفة. بعد أن انتهيت من التزيّن، جلت جميع شوارع فورلي، وزرت كل أنحائها. بدا الخراب في تلك البلدات الإيطالية أشد وطأة مما كانت عليه نظيراتها الإنجليزية والفرنسية. ظهر الطاعون هنا في وقت أبكر، فأمضى فتكه بهم قبل أن يتم ذلك بنا بوقت طويل. على الأرجح لم يكن هناك بشري حي بين شبه الجزيرة الإيطالية وجبال الألب في الصيف الماضي. كان بحثي بلا طائل على الإطلاق، ومع ذلك لم تبرد همّتي. ظننت بأني على صواب وأن فرص وجود حي مثلي في إيطاليا الخاوية غير معدومة. وبينما كنت أجول في تلك البلدة المهجورة، حددت وجهتي المستقبلية. سأتابع سيري إلى أن أصل روما. وبعد أن أنتهي من البحث في كل بلدة على طريقي، وأتأكد من أني لم أخلف حيا ورائي، سأكتب في الأماكن العامة الظاهرة بالصبغ الأبيض وبثلاث لغات: «فيرني آخر من تبقّى من بني الإنجليز، اتخذ من روما له مسكنا».

إمضاء لنيتي دخلت إلى محل أصباغ وأخذت منه ما أحتاج. الغريب أني وجدت سلاء في ذلك الانشغال التافهة؛ بل إنه بث الحياة في. وما ذاك إلا نتيجة لطول الحزن وشدته. ختمت ما كتبت بمناشدة تقول: «أقبلوا يا رفاق! أنا بانتظاركم!». انطلقت في اليوم الثاني إلى روما، يخالجني شيء من الأمل. إلى ذلك الحين كان أول ما يستقبلني عند استيقاظي ألم من مستقبلي

الموحش، ويظل مرافقا لي إلى أن يودعني كف النوم. كنت أستسلم إلى سطوة الألم وقهره في كثير من الأحيان، وأنوي تعجيل قضاء نحبي بالانتحار. كانت تلك الفكرة مثيرة لبهجتي، فأي شيء سأخاف في العالم الآخر؟ إن كان مستقري في الجحيم فسأبلغه معتادا على العذاب. بيد أن تلك الأفكار أخذت في التلاشي بما تجدد في من أمل. انطلقت في سيري ولم يعد الألم الذي لا يطاق رفيق يومي ودربي.

قادني سيري في سفوح جبال الأبينيني، وولوجي في أوديتها، إلى طرقات مشى فوقها الأبطال، وعبرها آلاف الزائرين المبهورين. غير أنهم اختفوا وتركوني وحيدا. لكن لم الشكوى؟ أو لم أقطع الأمل؟ وبّخت نفسي وجمعت ما بقي في من جلد، ولم يكن شيئا، حتى لا تقصمني خيبة أمل أخرى.

كانت توقظني شمس الصباح كل يوم لأغادر مباتي المهجور. بينما كانت أقدامي تسيح في البلاد الخالية، كانت أفكاري تهيم في العالم. كان حزني أقلّ ما يكون حينما أستغرق متأمّلا في الكون أو في أحلام اليقظة. كنت أبغض دخول أي منزل في المساء لأبيت فيه، على إنهاكي. وإن اخترت أحدها كنت أجلس ساعات عند بابه، غير قادر من فتح بابه خشية أن يستقبلني الفراغ. نمت ليالي عديدة أسفل شجر البلوط، على إحاطة ضباب الخريف للمكان. كثيرا ما كنت أقتات على التوت البرّي والكستناء، مستدفئا بنار أشعلتها على الأرض كالغجر. كانت المناظر الطبيعية أهون علي ممّا يذكرني بوحدتي التي

لا انفكاك منها. حملت معي عصا قصيرة من الصفصاف، واستخدمتها لعدّ الأيام. كنت أثلم فيها خدشا صغيرًا لكل يوم منذ تحطّمت السفينة، وأضيف خدشا آخر كل ليلة إلى حساب عزلتي الكئيبة.

كابدت صعود تل يقود إلى سبوليتو. انتشر حوله سفح تحده جبال الأبينيني المغطاة بأشجار الكستناء. امتد في أحد الجوانب مسيل غائر بنيت فوقه قناة مائية ضربت جذورها في أعماق المسيل، قامت كشاهد على أن الإنسان أسبغ فكره على هذا المكان من قبل، ليهذب الطبيعة ويزينها. تلك الطبيعة المتوحشة الجاحدة، التي شوّهت صروح الإنسان الخالدة بغطاء من الأزهار البرية والنباتات الطفيلية. جلست على صخرة ونظرت من حولي. اكتست الشمس بلون ذهبي في الأفق الغربي، وأنعكس نورها على الغيوم في الشرق، فاكتسبت جمالا أخّاذًا. غربت عن عالم لا يوجد به ساكن سواي. أخرجت عصاي وأضفت خدشا. مرت خمسة وعشرين يوما منذ أن أطرب صوت الإنسان أذني، وسر وجهه عيني. خمسة وعشرون نهارا من الإرهاق، زاوجتها ليال من الوحدة، التحقت بالماضي مع ما مر من السنين.

لم لا أحسب الشهور؟ ولم أنشغل بحساب الأيام والأسابيع والأشهر؟ يجب أن أحسب السنين. إن كنت متصورا مستقبلا لنفسي يجب أن أحسب سنواته لا دقائق أيامه. فإن عمرت عاما، خمسة، عشرين أو خمسين فستنوء أدوات حسابي عن

عدّ أيامها. اعتدنا أن ننظر إلى مجيء الموت بارتعاد شديد، ذلك أننا لم نكن ندري حين قدومه ومكانه الذي يجئ منه. لكني أجد مستقبلي الوحيد أشد رعبا من الموت. كسرت عصاي وقذفت بها بعيدا. لست بحاجة لتدوين أيامي التعيسة ما دام ذهني مقسّما لحياتي بطريقة مغايرة لحساب الليل والنهار. وإن نظرت إلى ما مرّ من أيام منذ أن أصبحت وحيدا، أجدني ممقتًا لأنّ أسمي سكرات الموت تلك أياما.

دسست وجهي بين راحتي يدي. تعكر صفو الهدوء بتغريد الطيور الصغيرة وحركتها بين الأشجار، وما رافقها من صرير الجداجد وهديل الحمام البري بين الفينة والأخرى. كانت أفكاري مشغولة بالموت، وحدثتني تلك الأصوات عن الحياة. رفعت عيني إلى الأعلى فرأيت خفاشا يدور محلّقا، والشمس قد غابت خلف قمم الجبال. بان الهلال الشاحب بلونه الرمادي الممزوج بالبياض وسط ألوان الغروب البرتقالية، مصحوبا بنجم وحيد ساطع. مرّ قطيع من الماشية بلا راع عبر الوهد في الأسفل، متجهين إلى مشربهم، وانثنت الحشائش بنسيم لطيف. تلك هي الأرض، لم يغيّرها الخراب ولا الدمار. ماضية في دورة حياتها، يتعاقب في سمائها الليل والنهار، حتى وإن غاب الإنسان عن وجهها. لم لا أستطيع أن أنسى نفسي كتلك الحيوانات، ليفارقني الألم والبؤس الذي أقاسي؟ لكن شتان ما بيني وبينهم! أليسوا ينعمون بالصحبة؟ أليسوا ممتعين بأزواجهم وصغارهم ومساكنهم، حتى وإن لم نر ذلك فلا شك

تلك الأمور عزيزة عليهم. بينما أنا وحيد على قمة ربوة، أنظر إلى السهل وشقوق الجبال، إلى السماء ونجومها، وأستمع إلى أصوات الأرض والسماء والماء. لا أجد رفيقا لأبوح له بأفكاري، ولا حبيبا لأريح رأسي على صدره، ولا عينا لأبدالها نظرات الحب الذي تفوق لذته شراب الآلهة. ألا ينبغي لي أن أشكو؟ ألا ينبغي لي أن أشتم هذه الحياة التي حصدت إخوتي من بني البشر؟ ألا ينبغي لي أصب اللعنات على كل الكائنات الأخرى، التي تجرؤ على العيش والاستمتاع، بينما أن في عذاب؟

لا! سأضبط قلبي الحزين؛ ليتعاطف مع فرحكم. سأسعد لسعادتكم. عيشوا يا من اصطفتكم الطبيعة، أيها الأبرياء، فلست مختلفا عنكم كثيرا. كلانا أنشئ من لحم ودم، وقلب ودماغ. أزيد عليكم بأمر ما، لكنني أسميه عيبا لا نعمة، ما دام يقودني إلى ما أنا فيه من بؤس بينما أنتم في سعادة. برزت فجأة معزتان وسخل صغير إلى جانب الأم من أيكة قريبة، وراحوا يرعون الحشائش فوق التل. اقتربت منهم دون أن يشعروا بي. جمعت حفنة من العشب الأخضر، ومددته إليهم. اختبأ الصغير خلف أمه التي تراجعت بحذر. تقدّم الذكر إلى الأمام وعيناه إلي. اقتربت منه مادًّا يدي، فإذا به يحني رأسه وينطلق موجّها قرونه إلي. يا لي من أحمق! رفعت حجرا ضخما كفيلا بسحق خصمي المسرع إلي. وازنته ثم صوبته، لكن قلبي لم يطاوعني. قذفته بعيدا عن الهدف، فسقط إلى الوهد

في الأسفل. فرّ زوّاري المرعوبون إلى غطاء الأشجار. بينما انطلقت أنا إلى أسفل التل، معرّضا نفسي لجهد عنيف لأنسى بذلك حزن قلبي.

لا لا! لن أعيش في أحضان الطبيعة، عدوة كل حي. سأقصد البلدات، وأتجه إلى روما عاصمة الدنيا ودرة الإنجازات البشرية. لن أجد في شوارعها المزينة وخرائبها وآثار البشر العظيمة طمسا لذكرى الإنسان. كما تدوس الطبيعة على ذاكرته وتشوّه أعماله منادية بأعلى صوتها، من تلّ إلى تلّ، ومن وادٍ إلى وادٍ، بأنّ مياهها تحرّرت من سدوده وأن نباتاتها انفلتت من قوانينه التي فرضها؛ وأن سطوته قد تلاشت باختفاء جنسه إلى الأبد.

حييت نهر التيبر، إذ لم يتحول عن طاعته للإنسان. حييت سهل الكامبانا وكل ناحية وطأتها قدم الإنسان منه. دخلت روما من بوابة بوبلو، وحييت كيانها الشريف بإجلال. بدت ساحتها الكبيرة وكنائسها على امتداد شارع الكورسو، وكاتدرائية ترنيتا دي مونتي في صمت وبهاء وجمال أخاذ. كان الوقت مساء، وقد اتّجه سكّان المدينة من الحيوانات إلى مخادعهم. خيّم الصمت المطبق، ما عدا ثرثرة النوافير التي أطربت روحي. سرّني وجودي في روما مدينة العجائب، التي خلّدت في ذاكرة البشر لأبطالها ومغامراتهم. ذهبت إلى النوم في تلك الليلة وقد قرّت نفسي وسكنت.

في اليوم اللاحق بدأت تجوالي بنشاط باحثا عن النسيان. صعدت حدائق قصر كولونا المدرجة، التي نمت أسفلها، إلى أن جاوزت قمتها ووصلت إلى هضبة كفالو. تلألأت النافورة تحت أشعة الشمس، واخترقت المسلّة الحجرية كبد السماء الزرقاء. قام التمثالان كاستور وفالوكس بجلال في كلّ جانب، وهما يخضعان الحيوانات بقوتهما، وقد نسبت إلى نحاتيها فيدياس وبراكسيتيليز. كم جيل مرت على هذين التمثالين التي نحتها أولئك النحاتان! والآن ينظر إليها بني الجنس التي نحتت. صغرت في عين نفسي لما تفكرت بالأعداد الهائلة التي هلكت قبل هذين التمثالين، لكن سرعان ما عاد الفخر إلي. فقد نزع جمال هذين التمثالين الألم من تلك الأفكار، جاعلا إياها صورا من الشعر الساحر فقط.

ذكرت نفسي قائلا: «أنا في روما!». نظرت بحميمية إلى عجيبة العالم وربة أخيلة البشر، ومن تعاقب على تخليدها ملايين من الأجيال. سعيت للتخلص من الحزن الذي يعتصر قلبي، بأن رحت أبحث عما أتوق لرؤيته في شبابي. كل ربع في روما مكتظ بالآثار العتيقة. أحطّ شوارعها مزينة بالأعمدة المصقولة، من كورنث وأيونيا، والمتلألئة بقطع من الغرانيت أو الرخام السماقي. تشتمل جدران أفقر مساكنها على أعمدة محززة أو رخام ثمين، كانت يوما ما جزءًا من قصر قيصر. تكاد تلك الحجارة تنطق وتحدّث عن مجدها.

عانقت أعمدة معبد جوبيتير الضخمة، القائمة في فضاء

الساحة العامة، ومسحت خدي الملتهب بها. حاولت أن أنسى مصيبتي الراهنة بتخيل الماضي. طرت فرحا بنجاحي! فقد تجسد لي كاميلوس والأخوين غراتشي، وكذلك كاتو وتاسيتس آخر الأبطال، والنجوم الذين أناروا سماء الإمبراطورية في ليلها الحالك. ما إن انسالت أبيات فيرجيل وهوراس، ونثر شيشرون الساحر في ذهني، حتى شعرت بنشوة مسكرة لم أشعر بمثلها منذ زمن طويل. سرّني نظري إلى ما نظرت إليه أعينهم. تلك المناظر التي رأيتها زوجاتهم وأمهاتهم، وأعداد لا تحصى من البشر المجهولين. وجدت عزائي في تلك المدينة. لم يكن قصدي إياها بلا طائل، فقد وجدت فيها شفاء لجروح قلبي.

جلست أسفل تلك الأعمدة. كان الكولوسيوم على يميني، مكتسيا بغطاء أخضر ومتألقا تحت أشعة الشمس. وغير بعيد على يساري انتصب برج معبد جوبيتير. انتشرت أسفل مني كثير من أقواس النصر وجدران لمعابد خربة. جاهدت لأن أتصور جموع الرومانيين من العامّة والنبلاء منبثّة في الأرجاء. مرت حقب من أبناء المدينة في ذهني إلى أن بلغت أبناء عصري. فرأيت البابا بردائه الأبيض يمنح البركات للمصلين الجاثين على ركبهم، والراهب ذا القلنسوة. رأيت الفتاة ذات العينين السوداوين محتجبة بقطعة من حرير، والراعي ذا الصوت العالي يقود قطيعه إلى السهل الأخضر. حلت الشاعرية التي طالما اتصف الإيطاليون بها في ذاكرتنا، محل مهابة التاريخ الجليل. تذكّرت الراهب الأسمر وغيره من الشخصيات في

«الإيطالي»، والإثارة التي كانت تسري في دمي لذكرهم في أيام الصبا. استحضرت كورينا وهي تصعد معبد جوبيتير لتتوج. من هناك رحت أتفكّر كيف انتقل سحر روما من البطلة إلى الكاتبة إلى أن استقر في ذهن آخر أبناء البشر.

همت في تلك الأفكار وقتًا طويلًا، لكن كَرّة الحزن بعد مدة كانت بالغة الشدة والوطأة. أفقت من أحلام يقظتي، وبعدما كنت أسمع أصوات جموع الرومان وأرى حركتهم، أصبحت لا أرى إلا خرائب روما، وظلالها الساكنة على الأرض؛ أغناما ترعى فوق البلاط الإمبراطوري وجاموسا يتمطى فوق طريق المعبد المقدس. كنت وحيدا في الساحة، وحيدا في روما، وحيدا في العالم. أوليس يعدل إنسان واحد، في وحدتي هذه، كل أمجاد وتاريخ هذه المدينة؟ غاصت روحي في حزن عميق. كان التباين بين ما تخيّلت من جموع والواقع الذي حولي صارخا.

التفتُ من حزني ذاك للنظر في تفاصيل حالي. إذ عجزت عن تحقيق هدفي الرئيس إلى الآن، ألا وهو إيجاد رفيق ليؤنس وحشتي. إلا أن اليأس لم يغلبني. صحيح أني تركت كتاباتي في بلدات صغيرة وقرى نائية، إلا أن ناجيا آخر سيقصد روما حتما، حتى وإن لم يقرأ ما كتبت. كنت أزداد إيمانا مع تضاؤل فرصي.

صار من الضروري أن أهيّئ لنفسي سكنا في روما، ولو وقتًا

قصيرًا. صار لزاما علي أن أقارع الخطب وأثور عليه، وألّا أكون طيّعا لما يريد.

لكن كيف لي أن أمضي هكذا، بلا حب أو عاطفة أو رفيق؟ كيف لي أن أستقبل شمس النهار التي تحمل في أعقابها وحدة الليل؟ لم استمررت في العيش؟ لم لا أطرح عن كاهلي ثقل الحياة، وأحرر روحي من ألمها؟ لم يكن الجبن ما يمنعني، فقد كان العذاب الأكبر في البقاء حيا، وما الموت في حالي إلا راحة. لكن لن أقدم على الفعل. فقد قررت منذ أن أدركت ما أنا فيه بأن أعيش قدري. لو كنت أؤمن بأن هذا الكون يدار بيد عمياء، لقصدت الموت طوعا. لكن القدر اصطفاني بعدما فتك الطاعون بي. انتشلني من شعري من وسط الأمواج. اختصني لنفسه بتلك المعجزات، لذا سأكون خاضعا لحكمه. وما زادني التفكير في الأمر إلا إيمانا بأني يجب أن أستمر في العيش، بل وأن أكف عن التذمر والشكوى. لكن كيف لي أن أكف عن ذلك بلا يد حانية لتهدئ من ويلات قلبي؟ وإن مددت يدي، فلن تمسّ يدا تبادلها الشعور والإحساس. كنت محاطا ومحاصرا بجدران الوحدة المضاعفة. الانشغال وحده قادر على تسليتي عن حزني القابع، إن استطعت إليه سبيلا. ولمَّا قررت السكن في روما، ولو بضعة أشهر، فقد شرعت في الترتيب لسكني واختياره. كان قصر كولونا ملائما لغرضي. ففي فخامته وتحفه من اللوحات، وقاعاته الفسيحة ما يسكن حزني، بل ويثير بهجتي.

وجدت مخازن الحبوب في روما ممتلئة بالطعام، خاصة بالذرة. وذلك طعام لا يحتاج براعة في الطهي والتحضير. عادت علي حياة الشقاء والتمرد في صباي بالنفع. فمن ألف تلك الحياة ستة عشر عاما، فلن تفارقه طباعها. صحيح أنني عشت حياة مرفهة منذ أن بلغت ذلك السن، بيد أن حياتي قبل ذلك كانت وحشية بربرية كحياة مؤسس روما. وها أنذا الساكن الوحيد في روما الآن. أمضيت النهار في الركوب والرماية في السهل المجاور، ثم قضيت ساعات طوال في القاعات أنظر إلى التماثيل، وأغيب في سكرات الجمال. ترددت على الفاتيكان ووقفت محاطا بشخوص رخامية ساحرة، يفيض كل منها ببهجة سماوية. نظروا إلي بمشاعر باردة، وكثيرا ما كنت أوبخهم على برودهم. لكن، على إنسانية أشكالهم، إلا أنهم كانوا آلهة أسمى من البشر. صيغوا بأبرع ما يكون، حتى ليحسب الناظر أنهم أحياء متحركون. كنت أعانقهم أحيانا إما عبثا أو توهما مني بحياتهم، فأقبّل وجوههم الجامدة.

حاولت القراءة وترددت على مكتبات روما. كنت أنتقي كتابا ثم أقصد ركنا قصيا على ضفاف التيبر أو ظلال حدائق بورغيزي المقابلة للمعبد. في أحيان أخرى كنت أنتحي أسفل هرم سيستيوس، محاولا الاختفاء عن نفسي قدر الإمكان لأستغرق في صفحات الكتاب. أحال حزني ما كان في تلك الورقات من غذاء سام للعقول، إلى مادة يقتات عليها ليكبر ويعظم. ترتعش يدي وأنا أخط قصتي على هذه الصفحات

وأرسم صورة أيامي. يخفق قلبي ويجفل ذهني عن التعبير بجملة أو فكرة أصيغ بها ما حل بي من مصاب. آه أيها القلب المنهك، هل لي أن أشرحك، وأحكي لك ما أنت فيه من بؤس وكأبة وهم ويأس؟ هل لي أن أدوّن آلامي غير المنقطعة، والشتائم التي أهلتُ على الطبيعة القاسية؛ وكيف قضيت أياما بلا ضوء ولا طعام، قوتي الوحيد فيها النار المستعرة في صدري؟

عرضت لي في تلك الأثناء فكرة أخرى لشغل وقتي. فكرة أكثر ملاءمة لضبط أفكاري الحزينة.

ففي أثناء تجوالي في أحياء روما، وجدت أدوات للكتابة على طاولة أحد الكتاب. كانت أجزاء من مخطوطة ما متناثرة على الطاولة. كانت مقالة علمية عن اللغة الإيطالية. كتب على إحدى الورقات إهداء غير مكتمل، يهدي الكتاب فيه مقالته للأجيال القادمة، ويبين فيه أنه انتقى لهم أجمل ما في تلك اللغة الساحرة، وأنه ما أنجز عمله ذاك إلا لمنفعتهم.

هتفت مقررا، أنا سأكتب كتابا أيضا! لكن من سيقرؤه، ولمن سأهديه؟ ثم كتبت بسخافة إهداء بخط أنيق: إهداء إلى أعلام الموتى. انهضي أيتها الأشباح، واقرئي عن موتك! انهضي وطالعي تاريخ الإنسان الأخير.

لكن ماذا لو أن هذا العالم عُمّر بالبشر مرة أخرى، وانتشرت فيه ذرية زوج من المحبّين الناجين جائبين الأرض ومتسائلين

عن تلك الأثار. ألن يرغبوا بمعرفة أصلها وحكاية من خلفوها وإلى أين مضوا؟

سأدون ذلك التاريخ وأتركه في هذه المدينة العتيقة. سأترك أثرا يخلد وجود فيرني، الإنسان الأخير. عزمت أن أكتب عن الطاعون والموت في أول الأمر. لكن ذكريات سني الماضية كانت حاضرة بقوة في ذهني، لذا كتبت بهمة وقادة عنها وعن رفاقي. كانوا حاضرين معي أثناء إتمامي لذلك المشروع. وما أن أنهيت الكتابة ورفعت عيني من على الأوراق، حتى اختفوا. فعدت إلى شعوري بالوحدة من جديد.

مرت سنة وأنا عاكف على ذلك الشغل. تعاقبت الفصول وألقت بأثوابها المختلفة على هذه المدينة. مرت سنة ولم يعد التساؤل يشغلني عن حالي، فقد صارت الوحدة إلفي والحزن رفيقي الملازم. جاهدت لأن أقارع الخطب، وأطوع نفسي على الجَلَد، وأشرب نفسي الحكمة. بيد أني لم أفلح، فقد اشتعل رأسي شيبًا، وصار صوتي لطول الصمت منكرا حتى لأذني. بت أرى نفسي وما لها من سمات إنسانية، كائنا غريبا على الطبيعة. كيف لي أن أعبر عن ذلك البلاء ولم يعرفه إنسان قبلي قط! كيف لي أن أشرح عن ألم لم يحسّه أحد سواي! لم يدخل أحد روما. ولن يأت أحد إليها أبدا. أبتسم بمرارة كلما تذكّرت تعلّقي بذلك الوهم، ويزداد شعوري حينما أعي أني هجرت ذلك الوهم لأتعلق بوهم أشد استحالة، وعكفت عاما عليه.

عاد الشتاء مجددا وتعرّت أشجار روما من أوراقها. مرّ الهواء القارس فوق السهول المجاورة، فألجأ سكانها إلى بيوت المدينة المهجورة. جمد الصقيع مياه النوافير الجارية، وانقطعت أنغام نافورة تريفي. قمت بعمل حساب تقريبي مستعينا بالنجوم لمعرفة أول أيام العام الجديد. في السابق كان قداسة البابا يسير في موكب جليل إلى معبد يانوس، ليعلن عن بَدء العام الجديد بدقّ مسمار في بوابة المعبد. صعدت في ذلك اليوم إلى كنيسة القديس بطرس، ونقشت على أعلى حجر فيها: ٢١٠٠ آخر أعوام العالم.

كان رفيقي الوحيد كلب أهلب هجين من كلب صيد وكلب رعي، وجدته يحرس قطيعا من الغنم في السهل المجاور. كان صاحبه ميتا ومع ذلك لم ينقطع عن أداء واجباته. فإن حاد خروف عن القطيع، أجبره على العودة إليه، وإن رأى مفترسا، كرَّ عليه فأبعده. رأيته أثناء تجوالي في السهل، ولاحظت مثابرته على تنفيذ تعليمات صاحبه التي لم يعد لها أيّ فائدة. كانت فرحته برؤيتي غامرة. قفز إلى ركبتي ودار حول حصاني هازًّا ذيله بسرور. ترك قطيعه وتبعني، ومنذ ذلك اليوم لم ينقطع ساعة عن مراقبتي وخدمتي، مظهرًا تقديرًا كبيرًا لمسحي عليه أو حديثي معه. كان دبيب قوائمه ووقع أقدامي الصوت الوحيد المسموع حين دخلنا إلى كنيسة القديس بطرس. صعدنا الدرج الطويل معًا إلى أن بلغت القمة ونقشت هناك تاريخ آخر الأعوام. ألقيت نظرة أخرى على المدينة ثم انطلقت لأغادر

روما. كنت عازما على تركها منذ وقت طويل، وها قد وضعت خطة لأتبعها في سني القادمة بعد أن أترك هذه المدينة العظيمة.

ما الكائن الوحيد إلا جوّال بالفطرة، وذلك ما سأصير. الأمل بتحسن الحال ملازم للانتقال من مكان إلى آخر، وسيكون في ذلك تهوين علي في حياتي. كانت حماقة مني أن أبقى في روما. روما المشتهرة بالملاريا الفاتك ذائع الصيت. لا يزال الاحتمال قائما إن ذهبت إلى جميع أصقاع الأرض، أن أجد ناجيا في إحدى النواحي. قلت لنفسي بأن ساحل البحر سيكون الخيار الأنسب لأيّ ناجٍ. فحتى لو كانوا في أعماق اليابسة فلن يطول بقاؤهم هناك، في المكان الذي تحطّمت فيه أمالهم. وسيلجؤون إلى الترحال مثلي، حينها سيوقفهم ساحل البحر عند ذلك المدى.

سأركب ذلك البحر الذي فجع قلبي، علِّي أجد فيه فرجا. وداعا يا إيطاليا... وداعا يا روما يا درّة العالم الفريدة، ومسكن وحدتي لأشهر طويلة... وداعا يا حياة الحضر والسكن الثابت تحت تعاقب الليل والنهار... سيرافقني الخطر الآن وأحييه رفيقا. سيتقاطع طريقي والموت إلى الأبد، ولن أجده إلا متفضّلا إن أتى. وسيكون الشقاء والجو القاسي والعواصف المهلكة ألد أصدقائي. خذيني أيتها العواصف... افتحي أذرعتك لي يا قوى الدمار، وعانقيني إلى الأبد!

مَثُلَ نهر التيبر الذي شقته يد الطبيعة أمامي، وعلى ضفافه

مراكب كثيرة. سأحمل شيئا من الكتب والمؤونة وأركب وكلبي في إحدى تلك المراكب يقودنا التيار إلى البحر. سأبحر قريبا من تلك السواحل الساحرة جائبا البحر المتوسط، مجتازا نابولي وكالابريا، وأغامر بالعبور بين صخرتي سيلا وكاريبديس. ثم سأنطلق بلا خوف -فأي شيء سأخسر؟- مبحرا إلى مالطا وجزر سيكلاديس. سأتجنب القسطنطينية، فصورة أبراجها وخلجانها تنتمي إلى زمن آخر غير الذي أعيش. سأجانب سواحل آسيا الصغرى وسورية، سأمرّ بالنيل ذي الأفرع الثمانية، وبعد أن أتخطّى ليبيا وقرطاجة سأبلغ مضيق جبل طارق. ستظلّ مياه البحر مسكني إلى أن أتمّ رحلتي تلك أو ينفذ سهم الموت إلى قلبي، أو أجد في مكان ذلك الأنيس الذي أبحث عنه. فإن لم يكن سأظلّ هائما ناشرا شراعي بعدما يشيب الرأس مني، ويلج شبابي القبر ليلتحق بأحبّائه؛ حارثا عباب البحر وملقيًا مرساتي من خليج إلى آخر. سأودّع موطني أوربّا وأنحدر إلى سواحل أفريقيا السمراء، وبعدما أصارع مياه رأس الرجاء الصالح سأرسو بمركبي البالي تحت الأشجار العطرة لأحدى جزر المحيط الهندي البعيد.

تلك أفكار جامحة لكنها ما انفكّت تراودني أسبوعًا كاملًا، وكانت فكري الشاغل حين اعتليت كنيسة القديس بطرس. اخترت مركبي وما سآخذ معي. انتقيت بعضا من الكتب، أهمّها ملحمة هوميروس وأعمال شكسبير؛ وإن أردت غيرها فجميع مكتبات العالم مشرعة لي، وما إن أرسُ في ميناء ما،

حتى أتمكّن من التزوّد بغيرها. لست أعقد أيّ أمل على تحسّن الحال، بيد أن بقائي هنا لم يعد أمرًا مطاقًا. لا الأمل ولا البحث عن المتعة دوافعي، بل الملل والرغبة العارمة في تغيير مقامي. أتوق لمصارعة الأهوال ولرعشة الخوف، وأن يشغلني شيء ما مهما كان تافها لأقضي به يومي. سأشهد تقلّبات الجوّ بكلّ أحوالها، سأرى البشر في قوس قزح، والشؤم في الغيوم، وأستذكر في كلّ تقلّب منه ذكرى عزيزة على قلبي. هكذا سترعى عين الخالق التي لا تنام والملائكة وأرواح الموتى، قرب سواحل الأرض الخاوية في رابعة النهار أو في ظلمة الليل، قاربًا صغيرًا يحمل فيرني الإنسان الأخير.





ماري شيلي

في هذا الجزء، الذي تختتم فيه ماري شيلي ملحمة الإنسان الأخير، لا يتبقى للبشرية سوى الخوف. فقط الخوف، الذي يتشكّل في هيئة طاعون يواصل انقضاضه وتمزيقه لكل شخص يصل إليه.

لا دواء، وهجمات الموت لا فرار منها! ليس من مأمن، حتى في حال العزلة عن العالم: "كان عدونا، كفاجعة هوميروس، يطأ قلوبنا، ولم يكن لخطواته أي صوت".

تصل محاولات الصمود في هذه الملحمة الوجودية الدستوبية إلى أقصاها، بعد أن لفَّ الطاعون الدنيا من جميع الأطراف.

الأرض تزخر بالشرور، وكذلك البحر

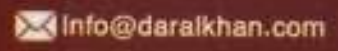
والأوبئة تتخطف بشريَّتنا الواهية

في رابعة النهار والليل، تطوفُ محلّقة بصمت

لتُخرسَ أرواحنا أبداً.


ISBN 978-9921-712-38-4




@DarAlkhan_kw info@daralkhan.com